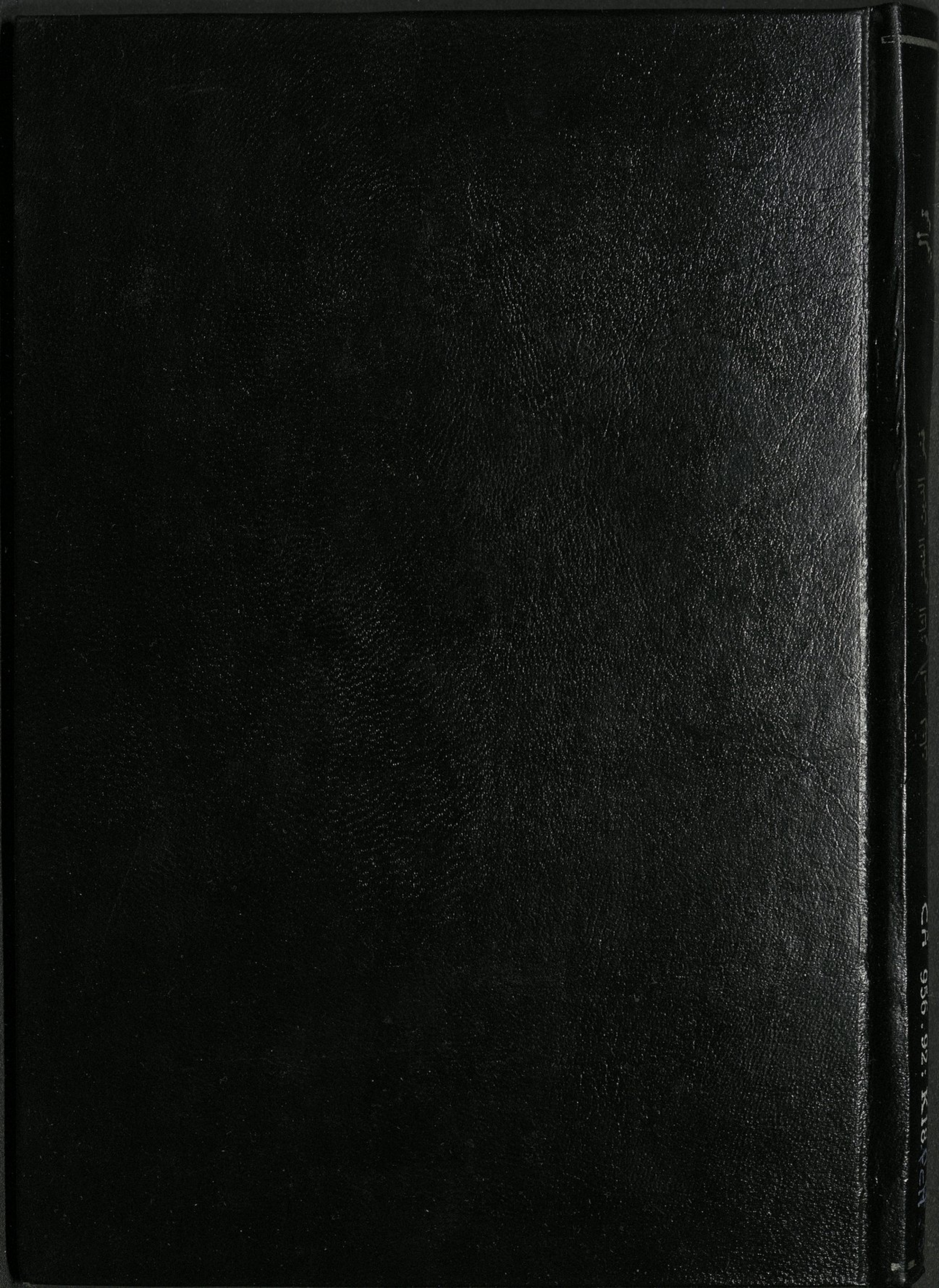
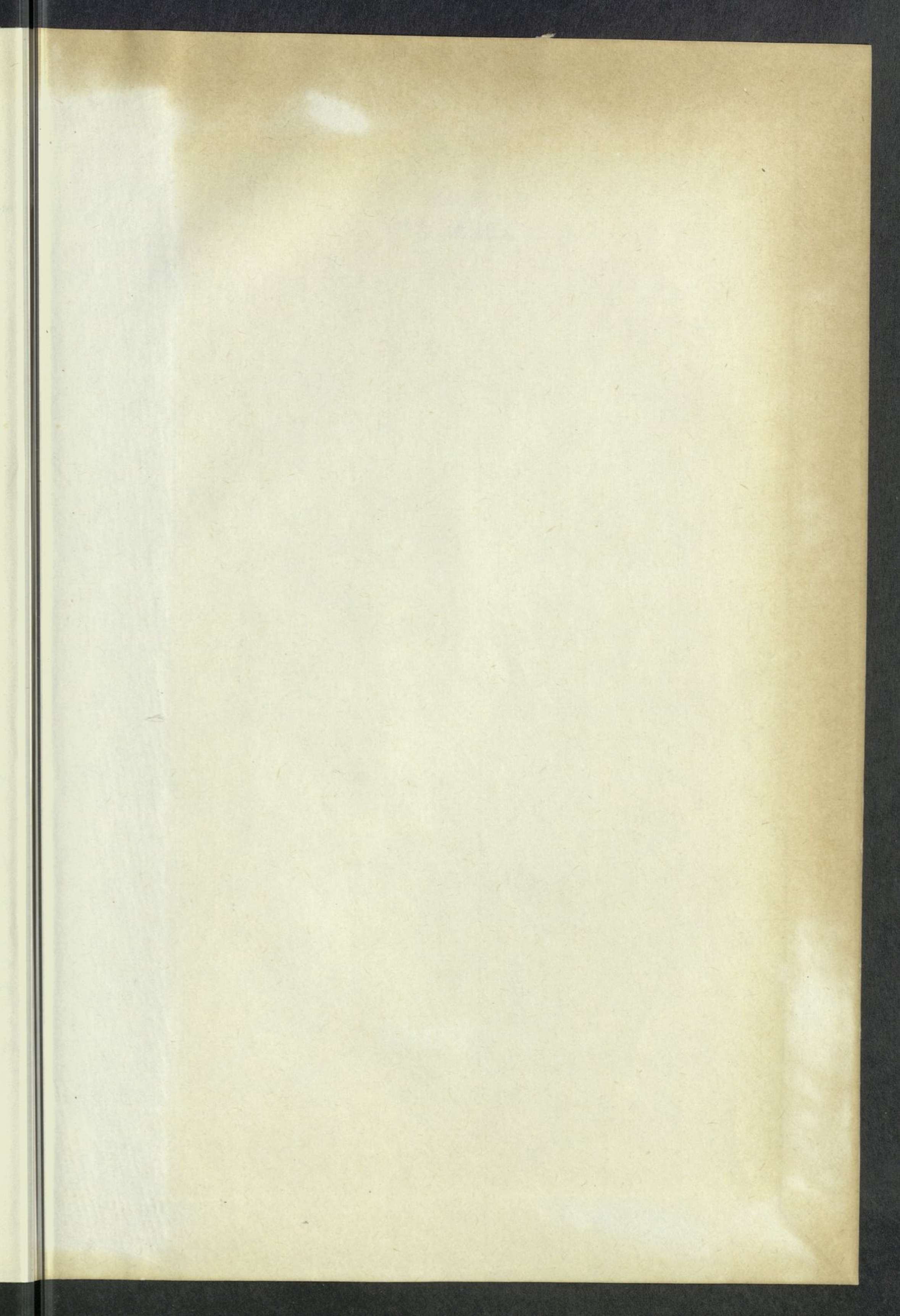



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت
UNIVERSITY
LIBRARY



فخر الدين المعني الثاني

امير لبنان

وفردناندو الثاني

امير تسكانا

١٦٢١ — ١٦٣٥

بقلم

الخوري بولس قرألي

مدير المجلة البطريركية

نشر برعاية

مجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي

بمطبعة القديس بولس — حريصا (لبنان)

١٩٣٨

الفصل الاول

فخر الدين سلطان عربستان

١٦٢١ - ١٦٢٩

١ - **برنامجه السياسي والعمراني** - عاد الامير فخر الدين من ايطاليا واحلام انجاز الوحدة اللبنانية تجيش في مخيلته، ونبضات العزم على تحقيقهـا تدقّ في صدره . واكبر الظن انه رسم في فضاء السنوات الخمس التي قضاها في المنفى بلا عمل ولا سلطة، خطوط هذا البرنامج الرئيسية؛ مستفيداً من اختباراته السابقة، الرابحة والخاسرة، ومن دروسه للانظمة الاوربية، ومشاهدته لمظاهر فوائدها في استتباب الامن وتعزيز العدل، وانتشار الرخاء والعمران، وازدهار الرقي الادبي والفني .

اولاً : انجاز الوحدة اللبنانية . وكان بعد مصرع نصوح باشا قد استعـاد وهو في فلورنسا، بمساعي اصدقائه من كبراء الاستانة، مقاطعات الشوف والغرب والمتن وكسروان والفتوح، وسنجقيتي صيدا وصفد، فولي ولده الامير علي حكمها . وحالما وطئت قدماه ارض عكا، في اواخر ايلول ١٦١٨، ارسل ينذر يوسف باشا سيفا بالانتقام منه للخيانات العديدة، التي ارتكبها في اثناء تغيبه . وما عتم ان دهمه، تحت هطل الامطار ولفحات البرد، فدكّ قصوره في عكار، وانتزع منه مقاطعتي جبيل والبترون، وحمّله ديوناً ناء

بثقلها . وبات يترّصده، حتى اذا حانت له الفرصة انقضّ عليـه وسلخ عنه قسماً من مقاطعاته . فنزع منه الجبة، فالضنية، فعكار . وبعـد موته، اي في سنة ١٦٢٧، ضمّ طرابلس والكورة، وهما آخر ما بقي لاولاد سيفا في لبنان

وفي السنة ١٦٢٣ لما بدت الخيانة من يونس الحرفوش، نسيبه وحليفه، نازله وحلفاءه في سهل عنجر، فأتمّ الوحدة اللبنانية بالاستيلاء على سهول البقاع الخصبة، وعلى قلعتيها بعلبك واللبوه .

ولم ينسَ هدَفه البعيد في الاراضي المقدسة، ليحلّ فيها الغراندوق صديقه وحليفه، فيحمي بقوات تسكانا حدود لبنان الجنوبية، وباسطولها شواطئه وموانئه . ولبلوغ هذا الغرض عمد الى ضمان سنجقيات عجلون ونابلس واللجون، حتى اصبحت اورشليم تحت رحمته . ووضع يده على حوران، الغنية بالحبوب والرجال من الدروز بني جلدته، فباتت دمشق تحت سيطرته[1] .

ثانياً : قصر بيروت . وكان لا بدَّ له بعد هذا التوسع من اتخاذ عاصمة للبنان تكون بمثابة قلبه النابض، فوقع اختياره على بيروت لتوسطها مملكته، ولبروزها في البحر بروز المدرّعة . وهمّ في عمارها وانعاش تجارتها . وفي السنة ١٦٢٢ باشر بناء قصره الشهير في جهتها الشرقية الشمالية، واحاطه بالجنائن الظليلة، ودعمه ببرج الكشاف، ليكشف منه البحار والسواحل والجبال، التي تشرف عليها اشراف الهلال على المعمور من كبد السماء .

واصبح هذا القصر موضوع اعجاب كل من شاهده من شرقيين وغربيين . وصفه ماجري وموندرل وبوكوك، وغيرهم من الرحّالة، وصفاً يثير الدهشة في همة هذا الامير وسلامة ذوقه، وطموحه الى مباراة اكبر عظماء الغرب عزّاً وفنّاً .

فكتب الاب ماجري في مفكرته «يوم الخميس ١٩ ايلول[2] بلغتُ بيروت حيث يقيم الامير . وقد بنى فيها قصراً فخماً على النسق الايطالي، بجنائنه واصطبلاته ومرابط

---

(١) ر ص ١٠٦ - ١٣٤

(٢) ١٦٢٤

الوحوش المختلفة . لانه اصطحب في عودته من فلورنسا مهندسين ايطاليين[١] .

والسائح موندرل، الذي زار لبنان في السنة ١٦٩٧، وصفه بقوله « ذهبنا لرؤية قصر هذا الامير، القائم في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، فوجدنا في مدخله سبيلًا للماء من ابدع ما في الاراضي العثمانية صنعاً

« والقصر مؤلف من عدة اجنحة . وفيه الاصطبلات واقفاص الاسود وغيرها من الوحوش. وحوله الجنائن الغنّاء، ما يجعله جديراً باكبر امراء الغرب، لانه غاية في الاتقان. ويظهر انه صنع امهر المهندسين .

« واحق ما فيه بالذكر وابدعه جنينة البردقال الشاغلة مساحة واسعة من الارض. وهي مربعة ومقسمة الى ست عشرة قطعة، اربع في كل زاوية . تتخللها المماشي المظللة باشجار البردقال العظيمة، المثقلة بالاثمار . حتى ان المرء لا يسعه ان يتصور اجمل من هذا المنظر في نوعه، واكثر منه اتقاناً . ولكل من المربعات الصغيرة اطارات من الاقنية، توزع عليها مياه الري .

« وفي الجهة الشمالية الحمامات، واكشاك المصايف وغيرها من الابنية الظريفة الانيقة . لان الامير اختار هذا المكان لراحته فوفر لنفسه فيه كل اسباب الرفاهية والانشراح .

« ويعجب المرء كيف ان اميراً شرقياً توصل الى انشاء جنينة بهذا الاتقان، الدالّ على سلامة الذوق في الهندسة . بيد ان فخر الدين اقام برهة في ايطاليا، حيث شاهد عجائب الفن والهندسة . وعرف كيف يقتدي بها، مما يدلّ على انه كان ارقى ثقافة من محيطه الشرقي .

«وفي ناحية اخرى من الجنينة شاهدنا عدة قواعد للتماثيل، فاستنتجنا ان هذا الامير لم يكن كثير التشبث بالعقائد الاسلامية[٢] . وفي احدى زوايا الجنينة برج ارتفاعه ستون قدماً، كان معدًا لارتفاع يزيد عما يتطلبه برج مقام لمجرّد الكشف ، لان سماكة جدرانه تبلغ اثني عشر قدماً . ومن اعلاه تسنى لنا ان نشاهد المدينة بكاملها[٣] ».

---

(١) الاصح استجلب . لانه في عودته الى لبنان أبحر من نابولي مستقلًا مركباً صغيراً . خ ٢٣٦ - ٢٣٨ .

(٢) التي تحرم التماثيل والصور

(٣) ف ٢٨٩ - ٢٩٢

وقال الرحالة بوكوك « وزع الامير المياه على كل اقسام القصر باقنية مخبأة في بطن الجدران » . ووصف الاصطبلات « انها فخمة للغاية . تقوم على عدة صفوف من القناطر المربعة العقود . ولكل حجرة نافذة للتهوية، ومعلف حجري وغرفة للسائس[١] » .

ثالثاً : سلطان البر . جاء في المفكرة الملحقة بالخالدي ما نصه « وفي اول ربيع الاول ١٠٣٤[٢] اجاه احكام سلطانية فرمان عالي شان خط همايون بان يكون متولياً على ديرة عرب استان من حد حلب الى حد القدس، ومعطى اسم جده المرحوم المغفور له الامير فخر الدين سلطان البر على المقاطعات المذكورة . بحيث تؤدى ميرتهم الى الخزنة العامرة وسلوك طرقايهم وانتظام عمارهم » . وتابع كلامه مخبراً كيف ان الامير، بعد ان تلقى هذا الفرمان، جمع من سكانه تسعة آلاف ومن اللبنانيين خمسة آلاف، وسار بهم في رحلة الى سوريا وحوران ووادي التيم استغرقت ثمانية اشهر، متفقداً البلدان التي آلت الى حكمه، منظماً امورها، جامعاً اموالها الاميرية، مرمماً او مشيداً فيها القلاع والابراج والاسوار . فكان ولاتها ورعاياهم يخرجون للقائه بالهدايا والذخيرة فيطمئنهم على ارواحهم واموالهم . حتى ان والي حلب هرول اليه، وقدم له من المال ثلاثين الفاً « قاصداً صفو الخاطر » . ولما شح القمح في دمشق استصرخه سكانها فرتب لهم جمالاً تحمله اليهم من حوران، وحدد سعراً للخبز . فاطاعوه ودعوا له بالنصر والتأييد، كما مر بك الشرح[٣] .

٢ ـ سفارة المطران جرجس بن مارون الثانية ـ بيد ان مهام هذه الدولة الواسعة لم تنسِه هدفه السياسي الاعلى، بل زادته السعة في السلطة والغلَبة على مجاوريه رغبةً في تأمين نفسه وذويه ومملكته من غدر الاتراك . فاوفد المطران جرجس بن مارون الى الغرب وكلفه ان يفاوض الكرسي الرسولي ودولتي اسبانيا وتسكانا في احتلال الاراضي المقدسة .

(١) Richard Pococke. A description of the East and other countries. 1745. Vol. II, Part. I, p. 91.

(٢) ١٢ كانون الاول ١٦٢٤

(٣) ر ص ١٣١ ـ ١٣٣ . خ ٢٤٢ ـ ٢٤٤

اولاً : مفاوضة دولة اسبانيا . في اواخر السنة ١٠٣٢[١] تلقى الامـير كتاباً من الدوق البوكركي[٢]، نائب الملك الاسباني في صقلية . « فلما وصل الكتاب حصل له غاية السرور والفرح وهتف : الحمد لله لم ينسونا » . وكان الكتاب حاوياً « اموراً كثيرة » . فاجاب الامير عليه، كما سيأتي الكلام. ومن مضمون جوابه على كتاب آخر، ورد له من البوكركي نفسه سنة ١٦٢٩، استدللنا ان موضوع الكتاب الاول كان يحوم حول الاتفاق على الدولة العثمانية، واستخلاص الاراضي المقدسة منها . ومما يدعم رأينا كتابٌ وجهه اوربانس الثامن في ٢٠ تشرين الاول ١٦٢٣، الى ملك اسبانيا، اوصاه فيه بالمطران جرجس بن مارون « الساعي لتحرير الاراضي المقدسة »؛ اليك تعريبه عن اللاتينية :

« الى ولدنا في المسيح، فيلبوس ملك اسبانيا الكاثوليكي الكلي الشرف

« توصية بمطران قبرس، الساعي لتحرير الاراضي المقدسة

« اوربانس الثامن البابا

« ايها الابن في المسيح، الجزيل الشرف . سلام والبركة الرسولية

« ان الشرق، الذي شوّهته العقائد الاسلامية، والواقع تحت نير الظلمة، يستصرخ عالياً الامراء المسيحيين، وخاصة جلالتك . ونحن الذين اجلسنا الامبراطور الازلي على هذا الكرسي الرسولي، لنسعى وراء راحة جميع شعوب الارض، لم نصمّ آذاننا عن هذا الصراخ، الطالب تحرير هذه الجهات . لذلك لم نشأ ان نحرم اخانا المطران جرجس بن مارون، رئيس اساقفة قبرس، وقاصد البطريرك الانطاكي، الساعي الى هـذه الغاية الشريفة ، التوصية اللازمة به، ليمثل بين يديك ويفوز بحماية ملك عظيم مثلك. ونحن نعلم جهودك الكبيرة في سبيل مجد الله وراحة الانسانية . فالسعي وراء هذه الغاية هو اشرف تاج تكلل به هامتك الملكية . واننا بدورنا نصبح مدينين لك بهذا السعي، وتصبح انت به ناشر الدين القويم ومخلص الشرق .

« اعطي في رومية بقرب كنيسة مريم الكبرى، تحت خاتم الصيّاد في العشرين من تشرين الاول للسنة ١٦٢٣ . وهي الاولى من حبريتنا[٣] » .

---

(١) تنتهي في ٢٤ تشرين الاول ١٦٢٣ . والارجح ١٠٣٣ كما سترى

(٢) Albuquerque

(٣) ف ٢٩٢

ثانياً : مفاوضة دولة تسكانا. وقد كتب على هامش هذه التوصية « لم تُرسل » .
فجاز لنا الاستنتاج من هذه الاشارة ومن الوثائق التالية ان المطران جرجس بن مارون عدل عن السفر الى اسبانيا، وانه اكتفى بالسعي لدى مجلس الوصاية التسكاني . ولعله نال منه وعداً بالتوسط لدى ملك اسبانيا حليفه .

وهذه الوثائق تدور حول مشروع حملة تحتل مدينة صور وتتحصن فيها وترحف منها على الاراضي المقدسة . وهي تحمل تاريخ السنة ١٦٢٤ . ويتذكر القراء ان آخر وثيقة تسكانية، عائدة الى اقامة الامير في ايطاليا، تحمل تاريخ ١١ آب ١٦١٥، الذي وصل فيه الى مسينا . فامامنا بين هاتين الوثيقتين ثغرة تسع سنوات، لا يُعقل ان ينقطع الامير في خلالها عن مكاتبة البلاط التسكاني، ان لم يكن من باب المجاملة ومعرفة الجميل، فمن باب المصلحة، لانه كان بحاجة دائمة الى الاسلحة والذخائر الحربية، لجهوده المتواصلة في سبيل الوحدة اللبنانية والتبسط، كما رأيت. وبين السنتين ١٦٢٤ و١٦٢٩، تنفرج ثغرة اخرى توقعنا في الحيرة نفسها . فاكبر الظن ان هناك نقصاً في المساند . لان المؤرخ ماريتي، الذي قلبها قبلنا بقرن ونصف قرن، لم يملأ هاتين الثغرتين الا بتخيلات خارجة من دماغه، مما يدل على نقص حقيقي .

فقد توفي قزما الثاني صديق الامير في ٢٨ شباط ١٦٢١، ووُضع ولده فردناندو الثاني تحت وصاية والدته ماريا المجدلية ارشيدوقة النمسا[1]، وجدته ماريا كريستينا غراندوقة تسكانا، ارملة فردناندو الاول وابنة دوق لورينا[2] . ومن التقرير الذي قدمه لهما المهندس سانتي عن مدينة صور، نزولاً على امرهما، يُفهم ان الامير فخر الدين وجه اليهما في السنة ١٦٢٤ المذكورة، او قبيلها، كتاباً عن مشروع الحملة، وانهما اخذتا تسعيان، بالاتفاق مع الكرسي الرسولي، لاعداد المعلومات اللازمة لتلك الحملة .

ثالثاً : موقع مدينة صور . وهاك تقرير سانتي عن موقع مدينة صور الحربي، الحامل تاريخ ١٠ اذار ١٦٢٤ . نعربه لك حرفياً لاهميته :

---

(١) Maria-Maddalena, Arciduchessa d'Austria.

(٢) Maria Cristina, Granduchessa di Toscana.

« ملاحظات على مدينة صور، وُضعت لمشروع الفتوحات في سورية

« تقع مدينة صور وسط شواطئ سوريه، وفي قلب مملكة الامير . كانت جزيرة، فوصلها بالبر اسكندر ذو القرنين بجسر من الرمال، عرضه ست وتسعون قصبة. وقد تكدست عليه الرمال حتى اصبح اعلى من المدينة . وهناك آثار جدران ضخمة وابنية فخمة لم يبقَ منها الان سوى قصر مشرف على الميناء، حوّل الى شبه حصن، يأوي اليه بعض الرعاة . وقطر المدينة ميل ونصف ميل تقريباً .

« وفي جهتها الشمالية ميناء تسع عدداً كبيراً من المراكب من شتى الاصناف ؛ تحميها المدينة وبعض الصخور المصطفة من الشمال الى الجنوب . اما مدخلها فمن الجهة القبلية . وفيها مرفأ امين للسفن، بيد انه قليل العمق، لا يحمل سوى المراكب الصغيرة[1] .

« وللمدينة اقنية مياه غزيرة، قريبة منها . لكنها على سطح الارض يسهل على العدو قطعها . هواؤها نقي . اراضيها منبسطة، خالية من الاشجار، الا بعض النخيل، فهي ملائمة لحركات الخيالة . احجار البناء متوفرة فيها، لكن الحرش اللازم لحرق الكلس بعيد . في ضواحيها مزارع كبيرة، فيها الاشجار المثمرة من شتى الاصناف .

« هذا الموقع، مع اهميته الحربية وملاءمته، خالٍ من الحامية والسكان . يسهل احتلاله والاحتفاظ به، اذا هاجمته قوة صغيرة . يبعد عن صيدا ثلاثين ميلاً . وبينها وبينه مصبّ نهر الدامور[2]، الملقب « بنبع بساتين لبنان »، لانه يحمل كمية غزيرة من المياه، وهناك برج يحمي مصبه . وعلى مسافة ثلاثة اميال منه تتدفق في البحر كمية اخرى من المياه الصالحة للشرب[3] .

« هذا اوفق موقع يسهل على الحملة احتلاله حال وصولها، والاحتفاظ به اذا هاجمه الاتراك . وهو ملائم للقوات البحرية وللحملات البرية . ولمحالفة الامير اهمية كبرى، فمن اراضيه يمكننا الزحف رأساً على مدينتَي اورشليم ودمشق . ويسهل فيها جر المدافع، التي يرتعب منها سكان تلك البلاد فرَقاً . والامل كبير ان نتوفق في هذه الحملة للنظام الذي يسود جيشنا وحسن استعداده وتجهيزه، ولان المنطقة قد تمتعت طويلاً

---

(١) طمر فخر الدين موانئ صور وصيدا وعكا ليمنع الاسطول العثماني من الرسوّ فيها ر ص ٧٨

(٢) لعله يعني القاسمية

(٣) يعني على ما نظن برك رأس العين

بالسلام، واهلها جبناء اذلاء، لاسيا اذا تحصنا دائماً في المنازل واخذنا من حلفائنا الرهائن الكافية .

« واكبر الصعوبة في قيادة الاسطول . فليس له ملجأ صديق من جبال اللكام في الاناضول حتى الاسكندرونة، مسافة خمسمائة ميل . ومن الجهة الاخرى شواطئ المغرب ومصر، على طول الف وخمسمائة ميل، كلها معادية ووعرة .

« هذا ما توصلت الى معرفته على اثر زيارتي لهذه الاماكن واختلاطي باهلها، واستقائي عدة معلومات وجدتها جديرة بالذكر . فارجو من صاحبتي السمو غض الطرف عن تقصيري، وان تملآ بحلمهما فراغ ما فاتتني معرفته . اختم بلثم الاذيال الشريفة سائلاً المولى ان يبلّغ مساعيكما المقدسة نتيجة موفقة مرضية » .

عن پيزا في ١٠ اذار ١٦٢٤ خادم سموكما المخلص الوضيع
يوحنا المعمدان سانتي [١]

٣ ـ سفارة الخوري يوحنا الحصروني ـ كان المجمع المقدس قد طلب الى البطريرك يوحنا مخلوف تجهيز اثني عشر تلميذاً الى المدرسة المارونية برومية، فكلف البطريرك الخوري يوحنا بن قرياقوس الحصروني، احد خريجي المدرسة نفسها [٢]، مرافقة هؤلاء الاحداث . فمر الخوري المذكور ببيروت في الخامس والعشرين من تشرين الاول ١٦٢٤، وقابل الامير فخر الدين مقابلة سرية، فسلمه كتاباً بهذا التاريخ الى البابا اوربانس الثامن، يحثه فيه على السعي وراء مشروع الحملة على الاراضي المقدسة. وحمل الخوري يوحنا معه كتابين آخرين وجههما الى الحبر الاعظم البطريرك مخلوف وابو صافي الخازن، حاكم الجبة، تأييداً لطلب الامير . وعاد برفقته الى اوربا الاب عبد الاحد ماجري، صاحب الرحلة، التي ذكرناها مراراً في هذا الكتاب، وعنها اخذنا هذه المعلومات .

---

(١) ف ٢٩٣ ـ ٢٩٥ ، حيث نشرنا رسماً لموقع صور عثرنا عليه بين الوثائق المديشية

(٢) تولى مع الصهيوني في باريس ترجمة اللغات الشرقية عند سلطان فرنسا وبعد رجوعه من رومية رسم اسقفاً، ومات بعد اربعة اشهر (د ٣٠٠) . وقد ترجمه ماجري في كتاب رحلته .

اولاً : كتاب ابي صافي . واليك تعريب كتاب الشيخ رباح الخازن المكنى بابي صافي . وهو بالايطالية، بيد ان امضاءه بالعربية . ولعل هذه الرسالة من نص الخوري يوحنا المذكور :

« ايها الاب الكلي القداسة

« انتهز فرصة سفر الخوري يوحنا، رئيس الكهنة، لاقدم لقداستك هذه العريضة، مقرونة باحترامي البليغ الوضيع لكرسيك الرسولي . اني بنعمة الله الخاصة، وبرعاية مولانا الامير فخر الدين الحكيمة، اتولى الان حكم جبل لبنان[١] بالرفق والمحبة . فاستمد بركة قداستك لاسير انا ورعاياي في سبيل خدمته تعالى وخدمة قداستك، آملين ان لا نبرح من ذهنك . اما ما خص اشغال البطريرك فنوصي قداستك بها خيراً، كي تبلغ انوار اعمالك الحسنة حتى بلادنا، شأن سلفائك. نسأل المولى ان يمنح قداستك العمر الطويل والسعادة .

عن جبل لبنان في ٢٣ تشرين الاول ١٦٢٤ خادم قداستك الوضيع المخلص

ابو صافي خازن

والي جبل لبنان

وعلى الهامش « سُلم الجواب الى الشخص الذي حمل الاواني الكنسية[٢] »

ثانياً : جواب اوربانس الثامن الى البطريرك . واليك جواب اوربانس الثامن الى البطريرك بخصوص مشروع فخر الدين، نعربه عن اللاتينية :

« الى البطريرك الانطاكي نفسه[٣] بخصوص امير صيدا صاحب العطف والاحسان على المسيحيين

---

(١) يعني جبة بشري

(٢) ف ٢٩٦ . جاء في الدويهي ان البابا ارسل الى البطريرك مع الخوري يوحنا المذكور تاجاً جميلًا وحلة لاجل خدمة الاسرار المقدسة (د ٢٠٠)

(٣) هو غير الجواب المنشور في الدويهي (د ٢٠٠) لانه خاص بفخر الدين

« ايها الاخ المحترم، سلام

« اننا نعتبر من واجبات كرسينا الرسولي السعي لشد إزر امير صيدا، لاننا نعدّ مملكته ميناءً يلجأ اليها المسيحيون في الشرق هرباً من عواصف الاتراك الهوجاء، حسبما شهدتَ في رسالتك. فهو يسمح باقامة الشعائر المقدسة في المقاطعات الخاضعة له، ويأذن للاكليرس الكاثوليكي بمزاولة اعماله الروحية. نسأل المولى الغني بالرحمة ان يُنبت بندى نعمته الالهية بزور رأفته في قلب هذا الامير المسلم، ضماناً للسعادة الابديـة. بيد ان النزاع القائم الان بين الملوك المسيحيين، والحروب الناشبة في ايطاليا، لا تسمح في الوقت الحاضر بتجنيد الرجال حسب شوره. وسيؤكد له رئيس الكهنة، الخوري يوحنا، ما لشهادتك فيه من القيمة الكبيرة لدينا. وفي الختام نمنحك البركة الرسولية.

« اعطي في رومية بجانب كنيسة القديسة مريم الكبرى في ٦ ايلول ١٦٢٥، وهي الثالثة لحبريتنا[١] ».

ثالثاً : جواب البابا اوربانس للامير. تعبنا كثيراً في التفتيش على نص كتاب الامير الى اوربانس الثامن، فلم نعثر عليه. بيد اننا عرفنا مضمونه، من جواب الحبر الاعظم عليه، ولاسيما من تقرير الكردينال بربريني الى القاصد الرسولي في فلورنسا، ومن كتاب المهندس سانتي، الآتي تعريبهما.

اجاب البابا الامير في ٦ ايلول ١٦٢٥ مبيناً له كيف ان الديانة المسيحيـة حملت راية الصليب، الذي تغلب على قوات الجحيم وكسر قرن الظلم. وبه انتصر قسطنطين الملك، مؤسس امبراطورية الشرق. الا ان الباري تعالى لخطايا البشر سمح بوقوع اورشليم ابنة صهيون تحت نير البرابرة. ثم قيض لها الامراء الصليبيين فخلصوها الى حين. وهو الذي خول حفيد[٢] قائدهم غودفروا دبويّون الانتصارات الباهرة عـلى الاتراك، لعطفه على المسيحيين واحسانه اليهم. وهؤلاء الجدود الابطال الاماثل يحثونه عـلى مواصلة جهوده في سبيل تخليص الاراضي المقدسة وعلى اعتناق ديانتهم، فتتكلل هامته باكليل المجد الذي ازدان به جدهُ بويّون.

(١) ف ٢٩٧

(٢) يعني فخر الدين

واردف الحبر الاعظم بقوله « وقد اثنى امامنا عليك الثنـاء الطيب الابن العزيز الاخ توما النوڤاري الفرنسيسكاني العائد من القدس . ولما سلمنا ولدنا الآخر المحبوب، الخوري يوحنا رئيس الكهنة الانطاكي، رسالتك وقص علينا اخبار انتصاراتك ومشاريعك الشريفة تضاعف سرورنا وشكرنا المولى لافتقاده اسرائيل . وقد شهد لنا البطريرك الانطاكي ان مملكتك فنيقيه اصبحت ميناء وملجأً للذين لم يتمكن الكفر المسلح من اغرائهم على هجر راية الصليب. واستدللنا من رغبتك في تحرير الشرق، واستعدادك للمجيء بنفسك الى هنا لاجل هذه الغاية الشريفة، ان شعلة التقوى التي كانت تضطرم في صدر جدك بوَيون لم تنطفئ بعد، بالرغم من الامم الضالة المحيطة بسلالته .

« بيد انه لا يسعنا ان نحبس دموعنا . فالنكبات الحالّة بالنصرانيـة هنا لا تسمح لنا في الوقت الحاضر بتجنيد الرجال . بل تضطرنا الى صرف العناية بهـذه البلدان . لكن املنا وطيد، اذا توصلنا الى ازالة الخلافات الناشبة الان في ايطاليا، بان يتسنى لنا استلهام السماء في سبيل استجابة رغباتك الشريفة ومسح دموع الشرق.

« وقد أطلعنا على مشروعك سمو غراندوق تسكانا، الذي لك عنده المقام السامي من الاعتبار . وبعد التروي في الامر رأينا ان مجيئك الان الى هذه البلاد غير مناسب. فالاوفق ان تكتفي بابداء الافكار التي تختلج في صدرك كتابة، او على يد أمين يشرحها لنا . وسترى ان آمالك في مساعدتنا لا تخيب في الوقت الملائم . فنشد إزرك بكل ما تصل اليه يدنا في مملكتنا . واذا اضطرك الامر فركبت البحر الى اوربا تحققت ما يكنه قلبنا نحوك من العطف والمحبة، وخوّلناك الحرية التامة في الرجوع الى وطنك متى شئت . وسيعبّر لك عن ذلك ولدنا العزيز رئيس الكهنة الانطاكي العائد الآن . . .[1] »

٤ ـ **بعثة الكردينال بربريني** ـ لم يقنط فخر الدين من جواب البابا، لاسيما انه ترك له باب الامل مفتوحاً . وقد رأى نفسه يزداد يوماً عن يوم قوة وتبسطاً، بينما كانت الدولة العثمانية تتخبط في الفوضى وتزداد ضعفاً على ضعف. فقد قام الانكشاريون

---

(١) ٢٩٧ ـ ٢٩٩

على السلطان مصطفى فخلعوه وولوا مكانه مراد الرابع . فالفرصة سانحة لتحرير وطنه من نير آل عثمان . ولعلها الوحيدة . افلا يواصل السعي لتأمين نفسه وذويه وبلاده من هؤلاء الظلمة الذين لا يعبأون بالعهود، وان غضوا الطرفَ عنه فالى حين . فصبر الامير برهة، ولما كان البابا قد طلب اليه ان يفاوضه على يد رجل امين انفذ اليه للمرّة الثالثة المطران جرجس بن مارون، الذي بلغ رومية في اواخر تموز السنة ١٦٢٧ .

لدينا عن هذه السفارة عدة وثائق، تنبئ عن نجاح المطران جرجس فيها بعض النجاح . ولو لم تقف في طريقه عراقيل غير منتظرة لفاز بأمنية سيده وطائفته فوزاً كاملاً .

اولاً : مهمة القاصد الرسولي في فلورنسا . توصل المطران جرجس الى اقناع الكردينال فرنسيس بربريني، ابن اخي البابا اوربانس الثامن، بفوائد حملة يترأسها الكرسي الرسولي لاستعادة الاراضي المقدسة بمساعدة فخر الدين . فاهتم الكردينال للامر الاهتمام كله، وباشر السعي لدى بلاط تسكانا بتقرير ارسله الى القاصد الرسولي في فلورنسا، هاك تعريبه حرفياً لاهميته، لاسيما اننا عرفنا منه القسم الاكبر من رسالة الامير الى البابا المفقودة :

« تعليمات ارسلت الى سيادة القاصد في فلورنسا، الحقت برسالة الكردينال بربريني المؤرخة في ٢٨ آب ١٦٢٧ .

« في شهر اذار من السنة ١٦٢٥[1] اوفد قداسة الحبر الاعظم الى بلاط تسكانا الاب توما النوڤاري الفرنسيسكاني، حافظ القدس سابقاً، فبلّغ مجلس الوصاية التسكاني والقاصد الرسولي ان فخر الدين امير صيدا كتب من بيروت بتاريخ ٢٥ تشرين الاول ١٦٢٤ الى قداسة البابا، حاثاً اياه على صرف الهمة الى احتلال الاراضي المقدسة، منتهزاً فرصة الفوضى السائدة في الامبراطورية العثمانية . وقد عرض على قداسته قوّاته، التي برهنت عن كفاءتها بالانتصارات العديدة التي نالها . وكان كلٌّ من الاتراك والعجم المتحاربين يجتهد في استمالتها . ولما كان القيام بهذه الحملة الخطيرة يتطلب الوقوف على تفاصيل متعلقة بصنف القوات الواجب تجهيزها، وبالاماكن التي يؤمل النجاح باحتلالها، عرض الامير المجيء بنفسه الى ايطاليا، ليشرف على تنظيم هذه القوات، حسب رأي قداسته .

(١) بعد وصول رسالة الامير المذكورة اعلاه الى البابا اوربانس الثامن

« وكان جواب الغراندوق ان الامير ذو اقدام وبأس وفطنة ، فيجدر ان تؤخذ الخدمات التي عرضها بعين الاعتبار . بيد انه رؤي ان مجيئه الى ايطاليا قد يثير الحسد والغضب في قلب الاتراك . وهنا ايضاً رأى الكرسي الرسولي ان هذا المجيء لا يعود على المشروع بفائدة تُذكر، بل يصبح خطراً على مملكة الامير نفسها .

« فاجاب قداسته الامير على كتابه مشيراً عليه بالعدول عن المجيء، وحاثاً اياه على مواصلة حمايته الفعّالة للمسيحيين في الشرق، مثنياً على مروءته للخدمات التي عرضها . ووعده بالنظر فيها بعين الغيرة الرسولية، رغماً من وقوف قلاقل اوربا، وخاصة ايطاليا، حجر عثرة في سبيلها الان .

« ومن مدة شهر أمَّ رومية رئيس اساقفة قبرس، مزوّداً برسائل من بطريرك انطاكية ومن الامير نفسه، ليجدّد باسميهما عرض الخدمات والمساعي في سبيل هذه الغاية .

« ولفتح الطريق امام هذا المشروع العظيم يجب صرف الهمة اولاً الى ايفاد شخصين من رجال الثقة والمعرفة الى الاراضي المقدسة بصحبة المطران المذكور، العائد حالاً الى وطنه، ليفاوضا الامير رأساً، ويجمعا المعلومات اللازمة، لكي لا يُباشر العمل على غير اساس راهن .

« ولما كان قداسته يحلّ سمو الغراندوق محلاً سامياً من الاعتبار، ويقدّر تقواه وقواه حق قدرها، فقد زوّد السفير، بكتاب وصاية الى سموه. بقي على حضرة القاصد ان يفاتحه في امر تعيين شخص ذي خبرة وثقة ليرافق هذا السفير . حتى اذا رأى سموه ذلك مناسباً، انتخب الكرسي الرسولي شخصاً آخر يصلح لهذه المهمة .

« ونحن هنا بانتظار الجواب باقرب وقت . وفي هذه الاثناء لا يفتر غبطته عن استمداد انوار الروح القدس، الذي سيكون القائد الاول في هذا المشروع الوعر الخطير[١] » .

ثانياً : مهمة سانتي . فاوفد الغراندوق الى رومية المهندس سانتي، احد اعضاء بعثة السنة ١٦١٣ الى لبنان[٢]، وصاحب التقرير الشهير المنشور اعلاه[٣]، ليتفاوض والكرسي

(١) ف ٢٩٩ - ٣٠١

(٢) ر ص ١٩٥

(٣) ر ص ٢٠٥ - ٢١٦

الرسولي في صدد هذا المشروع . فاجتمع مراراً بمندوبي الكرسي الرسولي . بيد ان الاجتماعات لم تسفر عن نتيجة حاسمة، نظراً لاضطراب الحالة في اوربا، واشتباك اغلب دولها في حرب الثلاثين لتأييد هذه الفئة من المتحاربين او تلك. اخيراً رأى الكردينال بربريني، نزولاً على الحاح المطران جرجس، ان يجهز على نفقته الى لبنان بعثة من الخبراء، ان لم يكن لمفاوضة الامير « فللمحافظة على حسن استعداده » .

وبعد ان عاد سانتي من رومية تلقى من كاتم اسرار الكردينال كتاباً مؤرخاً في ٢٣ حزيران ١٦٢٨، يدعوه فيه الى اعطائه ما لديـه من المعلومات، واسماء الاشخاص الذين يجب الاتصال بهم لهذا الغرض . ورجاه ان يبلغ سمو الغراندوق « ان قداسته يعدّ ما يسع سموه تقديمه من الاشخاص والمساعدات في سبيل هذا الامر، مظهراً من مظاهر التقوى، التي امتازت بها اسرته الشريفة » .

فكتب سانتي في ٢٨ حزيران ١٦٢٨ من پيزا الى كاتم اسرار الغراندوق ما يلي تعريبه :

« الحاقاً لما عرضته لسموه في اثناء اقامتي في رومية، افيد حضرتك اننا عقدنا هناك اكثر من جلسة للنظر في المساعدات التي طلبها حضرة الامير من قداسته ومن سموه[١]، ليواصل ما باشره من الفتوحات وما ناله من الانتصارات . فقد استولى على بلاد جميع الامراء مجاوريه حتى انطاكية، مسافة مئات من الاميال . واستخدم لذلك جيشاً كبيراً معظمه من المسيحيين . ووعد بان يقتبل العماد المقدس، ويسلم المسيحيين عدة مقاطعات ومدن وثغور . بيد انه سأل قداسته وسموه ان ينفذا اليـه اشخاصاً جديرين بالثقة، ومخوّلين السلطة الكافية ليعقد معهم اتفاقاً قبل الشروع في العمل وفي النفقات . اما السيد كارلو[٢] فارتأى ان يُحرَّر عقد المحالفة ويوقع في رومية، حرمةً للكرسي الرسولي، وان يوفَد الى الامير الاب العاقوري[٣]، والظابط جبرائيل نيكولتي[٤] » الخبير في

---

(١) هذا يدل على ان الامير كتب ايضاً الى الغراندوق، كما اشرنا سابقاً .

(٢) كارلو لورينا دوق ده جيز (Charles de Lorraine, duc de Guise) . كان من حزب ماري مديشي التسكانية، ارملة هنري الرابع ملك فرنسا، فاضطر ان يلجأ مع ولده هنري الى تسكانا، حيث تعرف الى فخر الدين وصادقه

(٣) الخوري نصرالله شلق ر ص ٢٢٥

(٤) Nicoletti

التحصينات، وشخصاً آخر يعيّنه الغراندوق، ليطلع على مجرى المفاوضات ويشترك فيها بالنيابة عن سموه. وان يسافر هؤلاء برفقة رئيس اساقفة قبرس، العائد قريباً الى وطنه. على ان لا يُخوَّل هؤلاء سلطة التعاقد، بل تقتصر مهمتهم على استطلاع نيات الامير ومعرفة قوّاته، وآماله في الفتوحات، وعلى اي اساس يطلب مساعدة المسيحيين، وما نوعها، وما هي المكافآت التي يعد بها، والضمانات التي يقدمها. وعلى الامير ان يوفد الى رومية مندوبين مزوّدين بالسلطة الكافية للتعاقد باسمه.

« هذه هي البنود الرئيسية، التي وقع الاتفاق عليها، ووافق عليها قداسة الحبر الاعظم امام السيد بالي تشيولي[1] بعد ان غادرتُ رومية. ثمت قصد سمو الغراندوق الى رومية، ووكل الى الكونت أُورسو[2] ان يفاوض قداسته باسمه. فاجاب قداسته « ان احوال ايطاليا لا تسمح الان بالسعي وراء شؤون خارجة عنها ». وعلى ذلك بقي المشروع معلقاً.

« بيد ان رئيس اساقفة قبرس واصل في رومية المساعي، والحّ في الاسراع في العمل. فتحركت غيرة الكردينال فرنسيس بربريني، ووطد النية على تجهيز هذه البعثة الاستكشافية على نفقته الخاصة. وانفذ الي الكتاب المطوي هنا. فارجو اطلاع سموه عليه، لعله يرغب في ان يرافق هذه البعثة شخص يمثله فيها. مع العلم ان الدوق ده جيز شديد الاهتمام بأمرها، ويحث على تجهيزها، واعداً ان يبذل وسعه في سبيلها...[3]».

ثالثاً: موقف بلاط تسكانا. بيد ان مجلس الوصاية التسكاني «لم ينظر بعين الارتياح الى تدخل اسرة بربريني في هذا المشروع خوفاً من ان تنقص مكانته لدى الامير، ويخسر شيئاً من الصداقة التي صرف عشرين سنة على تغذيتها؛ ففاز بحماية الامير لاسطول تسكانا ومراكبها وتجارها وقرصانها[4]». ولما علم بتعهد الكردينال بربريني ان يتحمل نفقات البعثة اظهر ارتياحه الى ذلك تخلصاً من الاشتراك فيها وفي نفقاتها. وفي الآن نفسه كان يسعى سرًّا لتجديد علاقاته الودّية والتجارية بالامير وبلاده، كما

(١) Bali Cioli

(٢) Orso

(٣) ف ٣٠١ - ٣٠٣

(٤) هذه الملاحظة لماريتي ف ٣٠٤ حاشية ٢

سترى عن قريب . واكتفى بالايعاز الى المهندس سانتي ان يقدم للكردينال بربريني ما لديه من المعلومات عن لبنان والامير .

وارتأى الكردينال المذكور ان ينتخب اعضاء هذه البعثة بين الاباء الكبوشيين، المستقرين حديثاً في لبنان[1]، او على الاقل ان يتزيا هؤلاء الاعضاء بزيهم، ليتسنى لهم السفر والتجوّل دون اثارة شبهات الاتراك فيهم[2].

رابعاً : الهدايا والبراءات . وسبق المطران جرجس الى البندقية ليركب منها الى لبنان، فطال انتظاره فيها وحلّ به الضيق لخلو يده وغلاء المعيشة. فكتب الى الكردينال بربريني في ٦ كانون الثاني ١٦٢٩ يستعجله في ارسال الهدايا والبراءات ليسافر بها. وحرر ايضاً له بهذا المعنى في ٢٠ و٢٧ من الشهر نفسه . وفي ١٧ اذار كتب يخبره عن قلق الامير من جراء تأخره، وانه يرسل مع كل المراكب القادمة من موانئه يستفهم منه عما انجزه من مهمته . وقد اوفد البطريرك اليه اخيراً رسولاً خاصاً يستعجله في العودة . وهو خائف ان يعود الى لبنان بعد غياب تسعة اشهر فارغ اليدين والصدر، ليس له ما يقدمه للامير ولا ما يقوله له في صدد مهمته . واردف المطران جرجس بقوله « اخبرني الرسول ان الوزير قد جرّد على الامير حملة، لينتزع منه الملك فلم يمكنه الامير من اذيته[3] » . وقد اوفد الامير سفيرين الى كل من ملك العجم واباظه باشا[4] الثائرين على الدولة العثمانية ليتحدا واياه عليها

فكلف الكردينال المطران جرجس اعادة مطاليبه عليه . فعدّدها له في كتاب تاريخه ١٣ اذار ١٦٢٩ كما يأتي : جواب الى البطريرك الماروني، الذي التمس ايفاد خبيرَين حربيين الى الامير، ليريهما حصونه وقلاعه وخنادقه والمراكز الملائمة لاقامة القلاع، والشواطئ التي يسهل على الجيش المسيحي النزول فيها والدفاع عنها، وليطلعهما على

(١) ر ص ٤٢ و٤٣

(٢) ف ٣٠٣ – ٣٠٥

(٣) يشير على الارجح الى حملة خليل باشا في السنة ١٦٢٧، وقد تحولت على دمشق بعد ان ارضاه الامير بمبلغ من المال، كما جاء في الدويهي (د ٢٠١ و٢٠٢)

(٤) استولى في السنة ١٦٢٧ على أنقره. وسيخبرنا الامير في الرسالة القادمة عن تغلبه على القوات العثمانية

نياته كلها واهدافه . وختم المطران بقوله « ورجائي الى نيافتكم ان يكون الجواب بخطكم، وان تعدوا فيه البطريرك بايفاد الخبيرين، فيطلع عليه الامير ويتأكد من اهتمامكم بمصالحه . واتوسل الى نيافتكم ان توجهوا باسم قداسة الحبر الاعظم، او باسمكم، كتابين، الواحد الى السيد خازن خازن[1]، قائد جيش الامير العام، وامير جبل لبنان، تشيرون فيه الى الدرع والسيف اللذين تهدونهما اليه ؛ والآخر الى السيد يونس حبيش، قيّم فخر الدين وامير فلسطين، تذكرون فيه السيف الذي تقدمونه له . وكلا الاميرين كاثوليكيان، خاضعان للكرسي الرسولي . اما رسم قداسته ورسم نيافتكم والشموع المباركة والانجيل العربي، المهداة الى الامير، فلتكن مصحوبة بكلمة تشجيع بخط يدكم . وتكرموا علي بصورة من هذه الكلمة لاطلع عليها، لاني عارف برغبات الامير وذوقه . واملي ان ترفقوا هذه الهدايا بمبلغ من المال كافٍ لنفقات شحنها وسفري مع الخادمين » .

وحرر له ايضاً في ٧ نيسان ان يصدر امره الى القاصد الرسولي في البندقية ليقوم بنفقة شحن صناديق الهدايا

وفي ٢٦ ايار ١٦٢٩ وجه اليه كتاباً اخيرًا يشكره فيه على الهدايا والبراءات التي جهزها . بيد انه ينتظر الرسالتين اللتين تقرر توجيههما الى ابي نادر الخازن ويونس حبيش، ليسلمها اليهما مع الهدايا . ويشكر له ايضاً تقديمه المبلغ الكافي لسفره[2] .

وعثرنا بين الوثائق البربرينية، المحفوظة في الخزانة الفاتيكانية، على كتاب آخر وجهه المطران جرجس الى الكردينال نفسه عن مدينة افينيون الفرنسوية[3] في ٥ كانون الثاني ١٦٣٢، يخبره فيه عن مرض اقعده في جنوفا بايطاليا، لم يلقَ في اثنائه ادنى التفات او مساعدة من مطرانها او من اعضاء مجلس شيوخها ، ضاربين بوصاية نيافته عرض الحائط . بيد انه لما وصل الى مرسيليا عُني به قناصلها العناية كلها، ودفعوا اجرة ركوبه في العربة حتى مدينة افينيون . وفي هذه المدينة انزله نائب القاصد الرسولي جناحاً فخماً من داره، وضافه على مائدته بسخاء، واستكرى له عربة بخمسة رؤوس

---

(١) هو اسم ابي نادر

(٢) ف ٣٠٥ – ٣١٠

(٣) Avignon مركز البابوات في فرنسا

خيل لتقلّه الى مدينة ليون، حيث يؤمل ان يفوز بالمساعدات اللازمة؛ «لانه يقوم بهذه الرحلة في سبيل من يحكم السموات» . ويختم كتابه مستمداً منه ان يوصي به القاصد الرسولي في باريس[1] .

ولا نعلم اعاد المطران جرجس في السنة ١٦٢٩ رأساً من البندقية الى لبنان، ام واصل سفره الى فرنسا . وهل رحلته الى هذه البلاد كانت في مصلحة طائفته ام في مصلحة الامير . غير اننا نستنتج من كتاب وجهه البطريرك يوحنا مخلوف في ٢٤ كانون الاول من السنة ١٦٣٣، الى قيّم الحبر الاعظم، شكراً على الهدايا المذكورة آنفاً[2]، ان هذه الهدايا تأخر وصولها الى لبنان حتى تلك السنة؛ ولعل هذا التأخير مسبّب عن سفر المطران جرجس الى فرنسا، بدلاً من رجوعه حالاً الى لبنان .

خامساً : قلاقل ايطاليا . ولم يختلف جواب اوربانس الثامن الى البطريرك، بخصوص مشروع فخر الدين، عن جوابه السابق . فهو يأسف لقلاقل ايطاليا، التي لا تسمح بارسال النجدات لشد إزر الامير في فتوحاته، ويثني على ابي نادر الخازن ويونس حبيش، ويحث الموارنة على تأسيس مدرسة اعدادية في لبنان، ينتخب منها تلاميذ للمدرسة المارونية برومية .

ومما قاله « ان اخطار العواصف والقرصان في البحر، الذي يصل سورية بالسواحل اللاتينية، لا يسعها ان تحجب عن اعيننا العناية الرسولية بالكاثوليك الموارنة . وكثيراً ما تحوّل محبة المسيح انظارنا نحو الجليل الذي اختاره بميلاده وطناً له . ولا يسعنا ان نحبس دموعنا لرؤية ابنة صهيون تئن تحت نير العبودية القاسي . فنرفع اكف التضرع الى عتبة ملك السموات ليفتح ابوابها ويبعث بجيش الطغمات السموية لتحرير هذا الشعب الشريف . ونحن لا نكتفي باستمداد المعونة الالهية لكم، بل نرغب ونسعى في تسليح الجنود والامراء المسيحيين للدفاع عنكم . ولكن يا للاسف ان بولونيا وجرمانيا لا تتحملان وحدهما ويلات الحروب، بل ايطاليا نفسها، بلاد السلام وسفينة الامانة، تتخبط في هذه الويلات .

«ومن هنا تدرك بسهولة، ايها الاخ المحترم، مقدار الحزن الذي ينفذ سيفه في احشائنا

---

(١) ف ٣١٤

(٢) سننشره في وقته

لعجزنا عن تجهيز الفرق المسيحية الى شواطئكم لتصعق قوات الجحيم . وقد دخل قلبَنا كبيرُ العزاء لما بلغنا مشروع امير صيدا، بيد ان هذا العزاء تبدّل بالمرارة لعجزنا عن ارسال النجدات المسيحية اليهِ، بالرغم من شدة رغبتنا في مساعدته . وفي الحقيقة عندما نسمع ان هذا القائد القوي الشكيمة، الذي يفتخر بتحدّره من القواد المسيحيين، قد اقام نفسه محامياً عن الكاثوليك، نضرع الى القادر على كل شيء ان يبلّغه مرامه في العمل الشريف الذي باشره على يده . لان جهوده الحميدة الشهيرة تستحق كل مكافأة وتشجيع ...

« وقد اصغينا باهتمام الى ما سرده لنا بهذا الصدد رئيس اساقفة قبرس، الذي لا يسعه ان يعمل اكثر مما عمل لنجاح مهمتهِ .وهو يشرح لك، ايها الاخ المحترم، حالة ايطاليا ورغباتنا الرسولية . ولما علمنا ان ولدينا العزيزين خازن، قائد الجيوش، وحبيش امين الخزنة، المتمتعَين بنفوذ كبير لدى الامير، يستحقان عطفنا، رغبنا اليك ان تسلمهما بيدك الاسلحة المباركة التي اهديناها لهما . ويمكنك ان تؤكد لبقية الاعيان حبنا لهم، وان تمنحهم عنا البركة الرسولية .حبذا لو تمكنوا بتبرعاتهم من انشاء مدرسة مارونية في جبل لبنان، فيرتفع اسمهم كالارز ليس في لبنان فحسب بل في الكنيسة الرومانية ايضاً .

« فليقف الرب عن يمينكم، ايها الاخ المحترم وايها الابناء الاعزاء . لا تضعف نفوسكم امام الشدائد والضربات التي تنهال عليكم، بل جاهدوا تحت راية المتعال لتستحقوا مكافأة السعادة الخالدة . لان « الساكنين في اورشليم لا يُخذلون ابداً ». ونحن نمنحك مع نائبك رئيس اساقفة اهدن[١] البركة الرسولية ونضعكما تحت حمايتنا الخاصة .

« اعطي في رومية في ٢٥ تشرين الثاني ١٦٢٨ . وهي السادسة لحبريتنا[٢] »

٥ ـ المساعي لدى الدولة الاسبانية ـ كان في برنامج سفارة المطران جرجس السفر الى اسبانيا والسعي لدى مليكها للاشتراك في مشروع الامير . لا سيما بعد

---

(١) المطران جرجس عميره الاهدني ، الذي خلفه على الكرسي البطريركي

(٢) ف ٣١٢ ـ ٣١٣

الكتب التي تلقاها الامير من الملك المذكور ومن الدوق البوكركي، نائبه في جزيرة صقلية . فتقدم المطران جرجس بطلب الى الكردينال بربريني، حامي الموارنة لدى الكرسي الرسولي، يسأله فيه ان يفوز له بتوصية الحبر الاعظم الى هذا الملك .

اولاً : التوصية . وقد عثرنا على صورة لهذه التوصية بالايطالية وبخط يشابه خط المطران جرجس، مما حدانا الى التردد في امرها : اهي صورة طبق الاصل، مع ان الاصل يجب ان يكتب عادة باللاتينية، ام هي من نص المطران نفسه وضعها لِيُنسج على منوالها او على معناها . ومهما كان الامر هاك تعريبها :

« لما كان المطران جرجس مارون رئيس اساقفة قبرس، وسفير بطريرك انطاكية والطائفة المارونية، راغباً في الذهاب الى جلالتك ليفاوضك بامور خطيرة، عائدة لمصلحة المسيحيين في تلك الجهات عامة ، ومصلحة الطائفة المارونية خاصة ، وهي الطائفة الكاثوليكية الوحيدة في الشرق، فتبذل المساعي لتخليصها من نير الاتراك الظالمين، رأينا ان نوصيك خيراً به وبمهمته، التي سيشرحها لك مشافهة، ان خولته هذه النعمة. آملين ان تعيده باقرب وقت مسروراً الى رعيته وطائفته وبطريركه . ان المشروع خطير. فان لقي تأييد وحماية ملك كاثوليكي قدير مثلك اصبحنا واثقين من نجاحه . ونحن لا نتأخر عن المساعدة عند الحاجة، لاننا لا نتوخى سوى خلاص النفوس واستئصال شأفة الهرطقة والكفر، وازدهار الامانة الكاثوليكية في العالم بأسره[١] » .

والصورة بلا تاريخ. بيد اننا رجحنا وضعها في اواخر ايار ١٦٢٩. لانها مثبتة في مجموعة الوثائق الخاصة بهذه السفارة المنظمة حسب التاريخ، فجاء ترتيبها بعد كتاب المطران جرجس الى الكردينال، المؤرخ في ٢٦ ايار ١٦٢٩ .

ثانياً : جواب الامير على كتاب البوكركي . في مجموعة الوثائق الشرقية المحفوظة في مكتبة بالرمو التي نشرها كوزا[٢]، تجد للامير جوابين وجههما الى الدوق البوكركي، نائب الملك الاسباني في صقلية، رداً على كتابين ورداه منه . فكشفا لنا النقاب عن

---

(١) ف ٣١١ و٣١٢

(٢) Cusa ١ : ٦٨٦ ـ ٦٨٩ . راجع اسمه في جدول المطبوعات ف ١٦

مساعي الامير لدى هذه الدولة، واتساع نطاق برنامجه في المؤامرة على الدولة العثمانية. فقد ادخل في هذا البرنامج الكرسي الرسولي ودولتي تسكانا واسبانيا وفرسان مالطه وملك العجم والثائر اباظه باشا، ليضمهم في محالفة قوية، ان لم تتمكن من تقويض العرش العثماني، توصلت على الاقل الى سلخ فلسطين ولبنان وسوريه وقبرس عنه .

والجواب الاول بالعربية «كتبه بخط يده ليلًا دون ان يعلم به احد»، كما صرح في ختامه . وباطلًا سعينا للفوز برسم شمسي للاصل لنتعرف الى خط الامير، كما تعرفنا الى انشائه . فلم يعثر عليه قيم المكتبة، واكتفى بارسال رسم الجواب الثاني التركي، مع ان هذا الرسم منشور في المجموعة المذكورة، وعنها اخذنا نص الجواب الاول . فدونك صورته وان مشوّهة، لان الناشر لم يحسن قراءته، على ما يظهر :

[٦٨٦] « قدوة الملة المسيحية ونخبة العصابة العيسوية نخص بذلك الدوكه دبر جرجي[١] الامير الكبيرى موكلا الباشه الحاكم على سجيليه[٢]

وبعد ان الامير فخر الدين يسلم عليكم كثير السلام وان سألتم عنا فنحن طيبين بخير وعافية ونرجو من الله الكريم ان تكونوا كذلك ونطلب من الله تعالى ان مكتوبنا [٦٨٧] يصلكم وانتم طيبين بخير واننا سايلين عنكم ولا ننساكم انا الليل واطراف النهار ونسل فضلكم واحسانكم ان تسلموا لنا على ري[٣] سلطان اسبانية وتقبلو لنا اياديه والذي يحيط به علمكم الكريم ان نقولة بن علي وصل الينا واجتمع بنا في سنة اثنين وثلاثين بعد الالف[٤] ووصل

---

(١) ابو جرجي Albuquerque

(٢) صقلية Sicilia

(٣) اي ملك Re

(٤) يقول الامير في جوابه الثاني (انظر في ما يلي صفحة ٢٨٩) ان نقولا وصل اليه اول مرة وهو في بعلبك في فصل شتاء ١٠٣٣، التي تبدأ في ٢٥ تشرين الاول ١٦٢٣ . ولما كان قد استولى على بعلبك بعد معركة عنجر، التي وقعت في ٣ تشرين الثاني ١٦٢٣ (رص ١١٤)، فوصول نقولا اليه كان بعد هذا التاريخ .

لنا مكتوبكم صحبة برنجي في اريتو[١] باشة البحر بين ولاية معلبك نحن حكامها ومتوليها لما وصل الينا مكتوبكم وقرناه وفهمنا معناه فحصل لنا غاية السرور والفرح بقدوم مكتوبكم الينا وقلنا الحمد لله ما انسونا[٢] ولما جانا مكتوبكم فقرناه رينا فيه[٣] امور كثيرة فردينا الجواب صحبة نقو فلما توجه نقولة من عندنا وجد البرنجي توفى والان جانا نقولة في شهر مرت في سنة سبع وثلاثين بعد الالف[٤] فوجدنا في قرنية[٥] فحصل لنا بمجيه غاية الصفا والهنا ورد لنا جواب عن جميع مصالحنا وجميع ما وصيناه عليه قضاه لنا على اتم الاحوال وهو شاكر من احسانكم وجميلكم وان سالتم عن احوال البلاد بتاع الترك فان قزل باش اخذ بلاد منهم ودبرشه[٦] اخذ اكثر من نصف بلادهم والعسكر الذي جاو من جانب العثماني في السنة الماضية ما قدرو يفعلو مع قزل باش شي واعباظه باشا[٧] قطع منهم اكثر من اربعين الف عسكر وان سالتم عنا فان في يدنا البلاد كثير واخذنا منهم حصارات كثيرة وقلع كثيرة وان سالتم عن العمارة بتاع الترك ما في البحر الان عماره ابداً ونحن وصينا نقولة على [٦٨٨] مصالح كثيرة ما يمكن كتبها في المكتوب[٨] وهو يخبركم عنها في السر وجميع ما

---

(١) الامير فيليبرتو Principe Filiberto . هذا التفسير للناشر

(٢) هذا يدل انه كان قد تعرف اليه في اثناء اقامته في صقلية

(٣) فقرأناه ورأينا فيه

(٤) آذار ١٦٢٨

(٥) في الرسالة التالية وردت « قرنية الشام »

(٦) قزل باش ودبرشه اسما قائدين من العجم الثائر على الدولة . هذا الشرح للناشر

(٧) هو اباظه باشا، مغتصب بغداد، الذي اوفد الامير اليه سفيراً كما ذكر اعلاه ر ص ٢٧٨

(٨) اكبر الظن انها تتعلق بمحالفة على الاتراك ، كما يستدل من فحوى الكتاب

يقول لكم عليه صدقوه واعملوا به فانه رجل صادق وناس ملاح ونعرف انه رجل طيب وبزم ديوانده عرفوه انه رجل طيب من اكابر الناس وابوه من الاكابر ونحن نحبه قوي لانهم عرفونا عنه من الزمان الاول انه يقاضي المصالح وان ابوه من الامرا الاكابر وجميع ما تفعلوه مع نقولة من الجميل والمعروف يصل الينا بالكمال والتمام وتعرفو انه اجانا اول مرة ونحن في بعلبك واجتمع بنا وعرفناه اسبينا له[١] ثلاثين يسير[٢] نصارى اسبانيول ومالطيز وغيرهم من الذي نخلصهم من المسلمين ونحن دايماً في بلادنا كل نصراني ان وجدناه مع المسلمين نخلصه ونحن لنا مصلحة عندكم نرجو من مروتكم تقضوها لنا في بلادكم اثنين يسارى من جماعتنا ونقولة يعرفهم في اي مكان ان كان تراعونا وتعرفو قدرنا ترسلوهم لنا صحبة نقولة ومهما كان لكم من المصالح في هذا الجانب في بلادنا تعرفونا عنه نفوز بقضاها لكم على الراس والعين وتعطو له مكتوب من عندكم تخبرونا ان مكتوبنا وصل اليكم وان سالتم عن حالنا ونيتنا فاننا ما نتغير لان قلبنا دايماً واحد ونيتنا واحدة والكلام الذي يقول لكم نقوله عليه ان كان هو معقول ترسلو تعلمو السلطان[٣] بذلك وبعد هذا الكلام الذي يقوله لكم [٦٨٩] نقولة ما بقي بعدو خير ولا لكم علينا عتب[٤] وتردوا لنا الجواب سرعة من غير تعويق ولا اهمال نحن

---

(١) تركنا له

(٢) أسير

(٣) ملك اسبانيا

(٤) اشارة الى مشروع المحالفة على الدولة العثمانية

وبلادنا وخدامنا كلهم في خدمتكم وفي رضا[١] خاطركم وهذا الخط كتب في يدنا في الليل ما علم به احد

تحريراً في شهر مرت من شهور سنة سبع وثلاثين والف[٢]

امير فخر الدين

ثالثاً : تبادل الاسرى . واليك نص كتابه الآخر بالتركية نقلاً عن رسم مأخوذ عن النسخة الاصلية وهو يحمل تاريخ حزيران ١٦٢٩ :

الامير فخر الدين

عزتلو ومرتلو[٣] تلو[٤] وسعادتلو ومرتلو خاكپاي شريفلرينه اكر درياي كرمولكز[٥] تموج وتفوج ايدوب صحت وسلامت اوزره يز واكر احوالمدن سوال ايدرسكز قبطان ميراليه نام كمسنه بن[٦] اوتوز اوچ ايل سنه سنده برنج فيلبرتو بر مكتوب ايله اسپانيه پادشاهن[٧] مكتوبيله كلمشدور برى[٨] معلبك ولايتنده برى[٩] بلوشمشدور قش (؟) قيمث (؟) زماتنده يدى[١٠] بز اني هر نسنه

---

(١) في الاصل رحتا

(٢) آذار ١٦٢٨

(٣) بدلاً من مروءتلو . التنقيحات اللغوية لحضرة المستشرق الايطالي اتوري روسّي Ettore Rossi

(٤) مراجعة الحرفين الاخيرين من الكلمة السابقة

(٥) لعله يعني كرمكز

(٦) بدلاً من بيك

(٧) بادشاهك

(٨) لعله يريد بزي

(٩) لعله يريد بزي

(١٠) بدلاً من ايدي

سولشتك جمله احوالي بلدوردك ودخي بزم ياتمزده اوتوز اكي اسير كاورلر واريدي پادشاهن[1] مكتوبي خاطرى ايشن[2] وقبطان نقوله دليكيله[3] قوي وردك هر كشى ولايتنه كتمشدور ودخي بزه بن[4] اوتوز يدى يلده قبطان نقوله بزه دنمشدور وقرانيه ولايتنده بز برنج فيلبرتو هلاك اولدكنى[5] دي ورمشدور ودخى اوني ايله سزه بر مكتوب كوندردك لكن جوابني بزه كوندرمدكز دخي قبطان نقوله بزه دونمشدر زرا[6] بز اونه[7] اسمردك[8] سزن[9] ولايتكزده اوچ دانه ادامىز اسير واردر اكى دانه ادام بزه اونلردن كترمشدور بن[10] اوچ يوز غروش مصروف لري اولمشدور كندى اقچه سيله صاتن المشدور بلمدك سز بزه جبا كندردكز اول قوى ورد كملز[11] كاورلرن[12] يرينه يوق سه قبطان نقوله صاتون المش يلمزز البته قبطان نقوله بر مكتوب[13] بزه كندرسكز اكر سز بزه اول اكى ادامي جبا كندورسكز

---

(١) بدلاً من باد شاهك

(٢) بدلاً من ايجين (؟)

(٣) بدلاً من ديكيله

(٤) بدلاً من بيك

(٥) بدلاً من اولدوغني

(٦) بدلاً من زيرا

(٧) بدلاً من اوكا

(٨) بدلاً من اصمارلادق

(٩) سزك

(١٠) بيك

(١١) بدلاً من ويرد كلريز

(١٢) بدلاً من كافرلرك

(١٣) كلمة ايله ساقطة في الاصل

خوش يوق سه يز قبطان نقوله اقچه سنی ورلوم زره[١] معلوم اولسون
بزه البته بر مكتوب كندرسكز قبطان نقولـه نن[٢] ايلنه[٣] تسليم
ايدرسكز ودخی اوچ اداممزدن بر اداممز قلمشدور قبطان نقوله بلور
يرنی اول اداسی البته بزده[٤] قبطان نقوله ايله كندرسنكز[٥] اكر
جبه اكر اقچه سيله كندرن[٦] بزه علی علی[٧] كل حال ودخي بزه بر
مكتوب كندره سكز قبطان نقوله نن[٨] ايلنه[٩] تسليم ايدرسكز هر
سزه لازم سه بو جانبتده (؟) علی الراس والعين سزه خدمت ايدرز
وقبطان نقوله هر نه ايلك ايدرستنكز[١٠] بزه ايلك اتمش كبي اولور
قبطان نقولـه دايما سزن[١١] اعرنده[١٢] چالشيور واكر ترك احواللرندن
صررسكز اولدن حالنده نسنه يوقدر احوالی قارش مروش قبطـان
نقوله بلور سزه اغزی ايلدی وا[لسلام ؟]

تحريرا فی شهر ذی القعده بن[١٣] اوتوز سكزنجي ايل سنه سنده[١٤]
قرانيه دن شام شريف سمنلرندن باقي فرمان سلطانمده والدعا

---

(١) زيرا
(٢) نقوله نك
(٣) الينه
(٤) بزه
(٥) كوندرسكز
(٦) كوندرك
(٧) مكررة
(٨) نقوله نك
(٩) الينه
(١٠) ايدرسكز
(١١) سزك
(١٢) اوغورنده (؟)
(١٣) بيك
(١٤) كلمة « سنة » موضوعة بالتركية وبالعربية

وعلى قفا الجواب بالعربية :

ويوصل ان شا الله تعالى الى جزيرة سلسيله ليد الدوكه دابر كر باشت سلسيله من عند الامير فخر الدين

وهاك تعريبه عن التركية :

« من الامير فخر الدين الى حضرة صاحب العزة والمروءة والسعادة . اذا تحرك بحر كرمك وسألت عن احوالي ، اجبتُ اني بصحة وسلامة . واذا سألت عن بلادي ، قلتُ ان شخصاً يُدعى القبطان نقولا بن علي جاء الي سنة ١٠٣٣ [١] بكتاب من الامير فيليبرتو وبآخر من ملك اسبانيا . وكنا في بلاد بعلبك في فصل الشتاء . وقد اخبرته عن كل شيء واطلعته على كل شيء . وحرمةً لكتاب ملك اسبانيا ، ونزولاً على رغبته سلمت اليه اثنين وثلاثين اسيراً من النصارى ، الذين كانوا عندي . ثم توجه كلٌّ الى مكانه .

« وعاد الي القبطان نقولا في السنة ١٠٣٧ [٢] بينما كنت في بلاد قرانيه ، واخبرني بموت الامير فيليبرتو . وقد ارسلنا لكم حينئذ رسالة على يده فلم تجيبونا عليها .

« ثم رجع الينا نقولا ، لاننا كنا اوصيناه بجلب ثلاثة اسرى من رعايانا موجودين في بلادكم . فجلب لنا منهم اثنين ، مدعياً انه ابتاعهما من ماله بمبلغ الف وثلاثمائة قرش . والان لا نعرف اذا كنتم قد ارسلتم لنا هذين الاسيرين لقاء الاسرى الذين اطلقناهم وسلمناهم اليه ، ام انه اشتراهما حقيقة بماله . فلزم الامر ان تصحبوا القبطان نقولا بكتاب منكم . حتى اذا كنتم ارسلتم هذين الاسيرين مجاناً كان به ، والا سددنا ثمنهما للقبطان نقولا . ولكي اعرف ذلك لا بد من ان تجيبوني وتسلموا الجواب للقبطان نقولا .

« ومن الاسرى الثلاثة بقي واحد هناك ، والقبطان نقولا يعرف مكانه . لا بد

---

(١) تبدأ في ٢٥ تشرين الاول ١٦٢٣ . وقد جاء في الرسالة الاولى سنة ١٠٣٢ ولعل هذا التاريخ الاخير اصحّ من الاول ، كما سبق القول (ر ص ٢٨٣ حاشية ٤)

(٢) تبدأ في ١٢ ايلول ١٦٢٧

ان ترسلوه الينا بثمن ام مجاناً . واكتبوا لنا في ذلك وسلموا الكتاب الى القبطان نقولا . وكل ما فعلتموه نحوه كأنكم فعلتموه نحونا . وهو يسعى دائماً وراء مصالحكم .

« واذا سألتم عن اخبار الاتراك، فهي كالسابق . لا شيء جديد . احوالهم مضطربة . والقبطان نقولا عارف بها وقد اطلعكم عليها .

« كتب في قرانية الشام في شهر ذي القعدة من السنة ١٠٣٨[١]

« احترام وسلام »[٢] الامير فخر الدين

---

(١) يبدأ هذا الشهر في ٢٢ حزيران ١٦٢٩

(٢) ف ٣١٥ - ٣١٨

الفصل الثاني

التجارة بين لبنان وتسكانا

١٦٢٩ — ١٦٣٠

١ ـ معاملة الامير للتجار التسكانيين ـ بينما كان مجلس الوصاية التسكاني يتهرَّب من الاشتراك في البعثة، التي اعدَّها الكردينال بربريني الى فخر الدين، كان يفكّر في شد اواصر الصداقة مع الامير، وتوسيع باب التجارة بين تسكانا ولبنان. لاسيما ان القمح والحبوب كانت شحيحة في اوربا، للحروب الناشبة فيها، وقد حرّم الباب العالي تصديرها من الشرق اليها. فانتهز الامير الفرصة ليبيّن للبلاط التسكاني حفظه الجميل.

اولًا: التاجر باشيكالوبو[1]. في ربيع السنة ١٦٢٩ وصل الى ميناء صيدا تاجر تسكاني، يُدعى باشيكالوبو، زوَّدته الغراندوقة بكتاب توصية الى الامير، ليسهل عليه شراء القمح في بلاده. فاستقبله الامير بعطف وساعده في مهمته، وسلمه جواباً الى الغراندوقة اليك تعريب اهم فقراته:

« تلقيتُ كتابك العزيز المؤرخ في ٢٥ كانون الثاني الاخير. فكان سروري به عظيماً، لا يعدُله اعظمُ سرور في هذه الدنيا؛ لانه وارد من يدكِ الكريمة، وطمأنني عن صحتك... ولو جاء محصولي هذه السنة كالسنين الماضية لملأت المركبين، دون ان اتقاضى غرشاً واحداً. بيد انني رخصتُ لصاحبها بشراء القمح من كل البلدان الخاضعة لي. وحسمتُ له غرشاً عن كل غرارة[2]، واعفيته من رسوم القنصلية...

---

(١) Bacigalupo

(٢) الغرارة مؤلفة من اثني عشر كيلاً والكيل من ٣٦ رطلًا

ولسموكِ ملء التصرّف في مالي واولادي . وهم على اتم الاستعداد لخدمتك، وتنفيذ كل اوامرك .

« سألتِني عن دخلي . احمد الله على انه يوازي الخرج . كما كان في اثناء اقامتي في خدمتك . بيد اني في ذاك العهد كنتُ براحة بال . وقد سلمت رسولك قنطارين من الحرير الجيد في ثمان بالات[1]، ليقدمه لسموك . املي ان تقبليه وتتمتعي به حبًّا لي . لم ابعث باكثر من هذه الهدية قيمة، لان الوقت غير ملائم . لكني واثق انك قابلة لها بنفس العاطفة التي حملتني على ارسالها ... انا وبلادي ورعاياي تحت تصرف سموكِ وبانتظار اوامرك لنلبيها . املي ان لا ابرح ابدًا من ذهنك . ارجو ان تعيّني هنا قنصلًا يشرف على تصدير محصولات بلادي الى تسكانا، واستيراد البضائع من بلادك؛ فيتاح لي ان اقف على اخبارك كلما وردت مراكب من عندك . واختم بتذكيرك بي انا

خادم سموك المخلص

الامير فخر الدين

امير صيدا وكامل جبل لبنان[2]

ثانيًا : البارون دلاجر .[3] وفي ١٣ تشرين الاول ١٦٢٩ رفع التاجر باشيكالوپو التماسًا الى الغراندوقة، وصف لها فيه حفاوة « الملك فخر الدين » به ، وسألها ان تجدد التوصية لابنه العائد الى لبنان للتجارة، وان تذكر البالات الثماني من الحرير البيروتي، التي تسلمتها منه، فتقوم التوصية مقام وصل بها، يقدمه ولده المذكور للامير عند مقابلته . فلبّت الغراندوقة طلبه .

وسلمت ايضاً توصية اخرى لاحد الانكليز، القاصد الى لبنان بثلاثة مراكب خاصة قنصل هولندا، جهزها في ليڤورنو ليشحنها من بلاد الامير قمحاً وفولاً « فيلاقي هناك

(١) كانت البالة توازي مئة ليبرة فرنسوية، كما سيأتي الكلام

(٢) ف ٣١٧ – ٣٢٠ . بعد ان استولى الامير على « جبة بشري »، التي كانت تعرف « بجبل لبنان »، اراد ان يطلق هذا الاسم على كامل المقاطعات اللبنانية، التي وحّدها . واصبح فخورًا بان يُدعى « امير لبنان » .

(٣) De la Legre

من التسهيلات والمساعدات ما يلاقيه عادة تجار ليقورنو في بلاده » . وهكذا كانت حماية الامير لا تقتصر على التجار التسكانيين، بل تمتد الى كل ارباب المراكب المقلعة من ليقورنو، مهما كانت جنسيتهم .

واستخدم الامير، على ما يُستدل من الوثائق، المدعو البارون دلاجر، همزة وصل بينه وبين بلاط تسكانا . وبعث على يده بكتاب سرّي الى الغراندوقة، فاجابته في ٢٥ تشرين الاول ١٦٢٩، شاكرة له « عطفه على الرعايا التسكانيين، والتسهيلات الخاصة التي يخولها التجار المقلعين من ليقورنو الى بلاده لشحن القمح وغيره من المحاصيل ». وخصته بالشكر لهدية الحرير « الذي لم تقع عينها على اجود واجمل منه » . وبادلته ببعض طرائف من مصنوعات تسكانا، هدية له ولزوجته خاصكيه .

وكان الامير قد كلف البارون ان يشتري له علبة عقاقير، فسبقته الارشيدوقة بتقديمها له، وارفقتها بكتاب لطيف شكرت له فيه حمايته لرعايا فردناندو الثاني ابنها . واكدت له « ارتياح البلاط التسكاني الى تبادل التجارة بين تسكانا وبلاده. وقد عهدت الى البارون ان يفاوضه في هذا الامر، ويعبر بلسانها عن جزيل ما له عندها من الاعتبار والامتنان » .

فردّ الامير عليها بجواب مؤرخ في ١٠ اذار ١٦٣٠ واكد لها « ان ذكرى قزما الثاني زوجها تحيا في قلبه حياته كلها، مقرونة بالرغبة الصادقة في خدمتها وخدمة ولدها . وان رعاياها القاصدين الى الشواطئ اللبنانية يلقون دائماً الحماية والعطف منه ومن ولده(١) . وقد كلف البارون السعي لتعيين شخص في صيدا يشرف على التجارة بين البلدين، ويسهل عليه مبادلتها الرسائل ومجاوبة افكارها وتلبية رغباتها » .

ومما كتبه الامير، جواباً على كتاب الغراندوقة الاخير « اما كفى ما لقيته في اثناء اقامتي في خدمتك من الرقة والمكارم حتي زدتِ على ذلك هداياك الظريفة، التي تقبلتها بارتياح شديد، واجبتُ البارون على الرغبات المبينة في رسالتك واحدة فواحدة . واضفتُ اليها بعض اشياء اودّ الحصول عليها » .

واوصاها ان توعز الى ربابنة المراكب التسكانية القاصدة الى بلاده برفع الراية

---

(١) الامير علي سنجق صيدا

الفرنسوية على قلوعها، لاسباب اوضحها للبارون[1] .

ومن الرغبات التي كلف الامير البارون ابداءها للبلاط التسكاني، ان ينتقي له مهندساً خبيراً بتشييد القصور والقلاع والجسور وسبل المياه، وطريقة جرها . وان يبعث اليه برسوم قلاع بانياس والشقيف ونيحا والمغارة « المدعوة قياس » . وهي الرسوم التي اخذها مهندسو بعثة السنة ١٦١٣ ، لانه يرغب في تجديد بناء القلعتين الاولين ، اللتين هدمهما جركس محمد باشا في السنة ١٦١٦[2] ، وترميم الاخريين . فبعث اليه البلاط التسكاني برسوم صور وقلعتي نيحا والشقيف، التي وضعها المهندس سانتي، احد اعضاء تلك البعثة، ووعده بارسال البقية في فرصة اخرى[3] .

٢ ـ **بعثة المراكب الخمسة** ـ شجعت هذه المعاملة الحسنة البلاط التسكاني، على شحن خمسة مراكب من مصنوعات بلاده الى لبنان، وتعيين قنصل دائم يقيم في صيدا ، ليشرف على مصالحه التجارية والسياسية ومصالح رعاياه .

اولاً : النقود والاقمشة . واخذ يجمع المعلومات لنجاح هذه البعثة التجارية . ومما عثرنا عليه في هذا الموضوع تقرير لمجهول عن النقود والبضائع الرائجة في بلاد الامير، نلخص عنه ما يلي :

« من عادة التجار الفرنسويين، الذين يرتادون موانئ صيدا وبيروت وعكا وحيفا والرامة، وما جاورها من البلدان، ان يستخدموا في معاملاتهم التجارية في هذه الانحاء ارباع الدوقات المضروبة برسم دوق لورينا وشعاره . فاذا ضُربت في تسكانا نقود برسم الغراندوقة وشعارها[4] ، تفوق جودة في معدنها وصنعها، صادفت رواجاً كبيراً في تلك الاسواق . وقد تقصد المراكب، المسافرة الى تلك الجهات في اشهر نيسان وايار وحزيران، ثغر ليفورنو لتحمل منه الكميات الكبيرة من تلك النقود .

---

(١) لان تسكانا كانت معادية للدولة العثمانية

(٢) خ ٥٠

(٣) ف ٣٢٠ ـ ٣٢٥

(٤) لانها ابنة دوق لورينا

لان العملة اللورينية لا تباع في الموانئ البحرية . فتأخذهـا من ليڤورنو باسعار تفوق سعرها الحقيقي، لتستخدمها هناك في شراء الحرير .

« كل ثلاث قطع من هذه النقود الربعية تساوي هناك قطعـة الثمانية الريالات الاسبانية، والوطنيون يفضلون هذه النقود الربعية على الريالات . وفي العام الماضي بيعت في صيدا غرارة القمح من عشرة الى اثني عشر غرش ابو كلب[١] . ومن واردات تلك الانحاء كمية كبيرة من الارزّ والزيوت والقطن والصوف والعطارة والملح والحرير الابيض والاصفر بين ناعم وخشن . ويصدّر اليها من فرنسا سنوياً زهاء مئة بالة من الاجواخ الصوفية، وبعض صناديق من القبعات الحمراء، فضلاً عن كمية كبيرة من ورق الكتابة » .

وقد عمـل البلاط التسكاني بهذه النصيحة وضرب كمية من ارباع الدوقات برسم الغراندوقة وشعار آل لورينا . وشحن منها ٣٠٣٣٠ قطعة في اربعة صناديق ، ومن الريالات الاسبانية، من فئة ثمانية واربعة فرنكات، ثلاثة عشر صندوقاً حاوية ٣٢٤٣٢ قطعة . فبلغت قيمة النقود المشحونة الى لبنان ٣٤٩٤٥ سكوتاً[٢] . واضاف اليها كمية من الاجواخ اللامعة المصقولة والمزهّرة، واخرى من تقليد مصنوعات البندقية، وبعض اثواب من المخمل الملوّن والشيت التسكاني . وارفق المراكب بغليونين مسلحين للدفاع عنها[٣] .

ثانياً : المندوبون . وانتدب تاجرًا يُدعى يوحنا ميتشيري[٤] ليتولى تصريف هذه البضائع والنقود وشحن المراكب في عودتها بالمحاصيل اللبنانية . وعين في صيدا قنصلاً تسكانياً يُدعى القائد فرنسيس دا ڤِراتسانو[٥] . كان قديماً اسير الامير ومن خدمه، فيعرف لغة البلاد وعاداتها . واعـاد البارون دلاجر ببعض الهدايا الى الامير والى

---

(١) عملة هولاندية نقش عليها رسم اسد، كانت تدعى ايضاً أَسديّة .

(٢) كان السكوت التسكاني يساوي غرشاً وربع الغرش، كما سبق القول

(٣) ف ٣٢٦ - ٣٣١

(٤) Giovan-Battista Miceri.

(٥) Capitano Francesco da Verrazzano.

ولده وحاشيته . وعين معاوناً له المدعو فرنسيس ليونشيني[١]

وزوّدت الغراندوقة القنصل بكتاب توصية الى فخر الدين مؤرخ في ٢٤ ايلول ١٦٣٠، «واثقة انه يلقى لديه من المعاملة احسنها، اكراماً لها» . واعتذرت له عن تأخيرها في ايفاد الخبراء، الذين طلبهم، لاسباب يوضحها له البارون مشافهة . وكتبت في اليوم نفسه الى الامير علي توصيه خيراً بالبارون ولاسيما بالقنصل «خادمها الخاص . وهو رجل ثقة يمكنه ان يسرّ اليه بكل ما يرغب في تبليغها . وقد امرته ان يخدمه ويطيعه في مدة اقامته لديه»

وصلت البعثة الى صيدا في ١٦ كانون الاول من السنة ١٦٣٠ عينها . وفي ٢٥ من الشهر المذكور كتب القنصل الى الغراندوقة ما تعريبه :

« بلغنا صيدا في السادس عشر من هذا الشهر، متمتعين بصحة تامة . فلله الحمد . ولما اخبر البارون الامير علياً بوصولي وبمهمتي انفذ ابرهيم نحمياس[٢]، امينه ووكيل والده، ليقرئني السلام ويهنئني بسلامة الوصول . وفي صباح اليوم التالي عاد المذكور فاخرجني من المركب ورافقني حتى قصر الامير، حيث أُعدّ لسكناي جناح خاص . وبعد الغداء دعاني ابرهيم لتقديم واجباتي للامير . وهو اذ شاهدني نهض من مكانه واقبل علي يعانقني بمظاهر الوداد . وسألني عن سموكِ وعن الغراندوق . ولما طمأنته عنكما اظهر الارتياح كله الى هذه البشرى . وامرني بالجلوس، وتحدث الي بامور شتى . ثم افهمني انه باعث بعد حين الي بخلعة، كان بودّه ان يضعها بنفسه على منكبيّ، لولا خوفه من اثارة شكوك ابناء العرب الحاضرين[٣] . ولما شكرت له هذه المنحة التي لا استحقها، اجابني «انها لا تُذكر بجانب ما لسموك من الافضال على والده . وان بلاده بأسرها مستعدة لخدمتك» . ولما عدت الى غرفتي ادركني ابرهيم نحمياس حاملاً الخلعة، وهمّ ان يلبسنيها، فمانعته . بيد أنه أصرّ بقوله «هذه اوامر سيدي» . فارتديتها وانا بغاية الخجل . وكان البارون وميتشيري حاضرين كل هذه المظاهر الولائية .

« واوفد الامير فخر الدين احد المسيحيين، المدعو ابو نادر، حاكم بيروت وكاتم

---

(١) Francesco Leoncini.

(٢) او نعمياس Nemias

(٣) حرفياً Mori اي السمر . لقب يطلقه الاوربيون على الوطنيين من غير المسيحيين .

اسراره الاكبر، فاعتذر بلسانه « انه لم يأت بنفسه لاستقبال خادمك، مع ما يكنه لسموك من الاعتبار . فان مهاماً حربية تضطره الى ملازمة معسكره في بعلبك . غير انه كلف الحاكم المذكور ان يرافقني انا والبارون حتى ذلك المعسكر » . لكني فضلتُ انتظار ميتشيري لاقدمه الى سعادته واخبره عن المصالح التجارية التي وكلها اليه سمو الغراندوق . ولهذا السبب صرفتُ المندوب . بيد انه لم يشأ ان يسافر حتى يتم اوامر سيده[١] » .

٣ ـ **البعثة التجارية في لبنان** ـ اهتم الامير بالبعثة التسكانية ومهمتها التجارية والسياسية، آملاً ان تفتح لبلاده مجالاً واسعاً في طريق الرفاهية والاستقلال . كان عند وصولها مقيماً في القاع، منهمكاً في تشييد خان عظيم للقوافل المارة به في طريقها من بلاد العجم والاناضول الى دمشق والقاهرة . فاستدعى المندوبين الى القاع، وكلف ابا نادر مرافقتهم اليه، وامينه ابرهيم نخمياس السهر في صيدا على راحتهم وتسهيل اعمالهم .

اولاً : استقبال البعثة في القاع . في رسالة وجهها القنصل دا ڤراتسانو الى احد كتبة اسرار الغراندوق في ١٥ شباط ١٦٣١، وصف له استقبال الامير اعضاء البعثة، وما شاهدوه في طريقهم من القلاع والآثار والطرائف، وخص بالذكر خرائب كرك نوح وبعلبك . فاليك تعريبها :

« ابشرك بعودتنا سالمين من القاع، الواقع في اطراف البقاع، من معاملة بعلبك . هذا المكان آخر مرحلة تحط فيه القوافل القادمة من بلاد العجم الى دمشق وحلب، ومن القاهرة الى حلب والاستانة . ولما كان لا بدّ لها من المرور بهذا المكان، اعتاد البدو ان يترصدوا لها فيه ويسلبوها . وقد شيد الامير هناك قصراً على شكل قلعة، لكن بدون رسم ولا هندسة . واقام ايضاً بناء على شكل الرواق، اسكن فيه عدة أسر جلبها لهذا الغرض . وهو منصرف الان الى عمار مكان لنزول القوافل،

---

(١) ف ٣٣١ ـ ٣٣٣

على شكل ترسانة قائمة على اربع قناطر، وفي وسطها حوش[1] وبجانبها جامع، اي كنيسة للمسلمين . كل هذه الابنية محاطة باسوار عظيمة، لكنها بدون نظام فني ولا هندسة .

« استغرقت رحلتنا من صيدا الى القاع ستة ايام ذهاباً ومثلها اياباً . بيد اننا سلكنا في العودة طريقاً غير الاولى، دون ان نخرج من اراضي الامير . وقيل لنا ان مملكته تصل الآن الى مسافة نصف يوم من حلب، ويومين من بغداد. وغايته من بسط حدوده حتى هذه النقطة السيطرة على قلعة تدمر . ومن الجهة الاخرى تمتد حدوده الى مسافة نصف يوم من دمشق . اما من جهة البحر فتنبسط شواطئه من حيفا، سنجقية الامير طرابيه، حتى ادرنه[2] . فمملكته زادت الان سبعة اثمان عما كانت عليه لما كنت هنا، او بالاحرى عما لم تبلغه لما ذهب الى هناك[3] .

« شاهدنا في طريقنا اكثر من قلعة، واقفة في اماكن مرتفعة، صعبة المنال . ولو شيدت على اصول الفن لاصبحت منيعة لا تؤخذ . بيد انها على حالتها الحاضرة قادرة على توقيف زحف العدو . وشاهدنا ايضاً عدداً وافراً من القرى المأهولة بالاروام والموارنة واتباع محمد واتباع صهره علي . وهم قوم يكرهون المسلمين والمسيحيين واليهود معاً . بيد ان الامير يجبرهم على قبول جميع المارة .

« ومررنا بمدينة بعلبك، ومعظمها خراب . ومن هذه الاخربة القلعة التي بناها سليمان الحكيم . مساحتها تزيد عن قصر الغراندوق اربع مرات . وهي مبنية بحجارة ضخمة جداً . رأينا فيها اربعة وخمسين عموداً حجم كل منها عشرة اذرع، وطوله يفوق عمود القديس مرقس[4]؛ غير انه مركب من قطعتين ام ثلاث من الرخام الابيض . وفي رؤوس هذه الاعمدة نقوش غاية في الاتقان . وفي هذا القصر او الحصن حجارة طولها من ثلاثين الى اربعين الى خمسين ذراعاً وعرضها من عشرة الى اثني عشر. وهناك اقبية يزيد طولها عن مائتي ذراع ويبلغ عرضها اثني عشر ذراعاً . في وسطها منـاور

---

(١) للحيوانات

(٢) Andrinopoli ونظن انه يعني ادنه في الاناضول

(٣) الى تسكانا سنة ١٦١٣

(٤) في ساحة القديس مرقس بالبندقية

كالتي في مغارة پوتسوولو[١] في ناپولي . ومما يثير الدهشة ان البناء كله قائم بلا كلس.

« مكثنا في ضيافة الامير سبعة ايام، قابلته في خلالها مرتين . وقد اظهر لي سروره بقدومي، ليتمكن من ان يفضي الي بجميع رغباته، لانه لم يكن واثقاً من البارون الثقة كلها . وقد كلفه ان يسعى لدى الغراندوق في تعيين رجل امين يقيم لديه . اما قائمة مطالبه فقد سلمتها الى ليونشيني، العائد بامره الى تسكانا ليتعاطى مهمات كثيرة لا يسعني التصريح بها كتابة . ومن مطاليبه قارب لاتيني مسلح جيداً، حمولته من الف وخمسمائة الى الفي كيس؛ كالقارب الذي يسافر الى جروسّيتو[٢]؛ وان يُرسل معه ثمانية ام عشرة بحارة ، يتعهد الامير برواتبهم وبتسديد ثمن المركب حال تسلمه . وفي نيته ان يتركه تحت تصرفه، لاسباب يوضحها لك ليونشيني مشافهة . بيد انه لا يرغب في الاكثار من الفلورنتيين في خدمته، كما يبينه لك ليونشيني المذكور.

« مراكب سموه لم تجهز بعد حمولتها . وفي نية الامير ان ياخذ البضائع الواردة فيها لقاء كمية من الحرير يسلمها الى ميتشيري باسعار السوق الحاضرة . هذا اذا قبل ميتشيري بتسليمها الى الامير، لانه ينوي ارسال قسم منها الى دمشق، وابقاء القسم الآخر بين يدي اخيه وسبستيانو بورشلوتّي[٣]

« لا يتسع لي الوقت لاطالة الشرح، لاننا وصلنا هذا اليوم من القاع، وغداً صباحاً يقلع من هنا مركبان فرنسويان . ساكتب لك بتفصيل أوفى عند سفر اول مركب من هنا[٤] » .

ثانياً : هدايا فخر الدين . وكتب الامير في ٨ شباط ١٦٣١ من القاع « دولة بعلبك »، الى الغراندوق كتابين، رداً على كتابين وردا منه . فاخبره في الاول انه قابل اكثر من مرة مندوبه التجاري وباحثه في امر البضائع، وكلف ابرهيم نخمياس الاتفاق معه بشأنها، وتسهيل المهمة التجارية التي باشرها البارون . وشكر له في الجواب الثاني هديته المؤلفة من الفي قنبلة وما يلزمها من البارود، ومن المفرقعات والنيران

---

(١) Pozzuolo حيث بركان ما زال متأججاً تنبعث منه ابخرة كبريتية

(٢) Grosseto

(٣) Sebastiano Porcelotti

(٤) ف ٣٣٣ ـ ٣٣٥

الاصطناعية . فزاد على افضال بيته الكريم نحوه افضالاً جديدة . وشكر له ايضاً تعيينه قنصلًا لديه، يسرّ اليه برغائبه ومشاريعه . ولما كان البارون انتقل الى رحمته تعالى فقد اتفق مع القنصل على انتداب مساعده ليونشيني مكانه، وعلى ايفاده الى تسكانا، ليُدلي برغباته الى سموه مشافهة

واردف بقوله « ولما سمعتُ برغبتك في الحصول على جياد من اصائلي، بعثتُ الى سموك مع المذكور بحصان وفرس، استخرجتها في اسطبلي الخامس . وبحصان آخر اهديه الى الامير لورنسو . فان لم تفِ هذه الجياد بالمرام عذرتني، لاني انتقيت اجود ما عندي » .

وختم كلامه مؤكداً له ان قنصله لاقٍ منه الرعاية كلها والاكرام، وانه كلف ابرهيم نخمياس تلبية رغائبه وخدمة افكاره .

وكتب ايضاً في التاريخ نفسه الى الغراندوقة شاكراً لها هديتها النفيسة، مقرًّا بتقصيره عن مجاراتها في ميدان الكرم . فهي ما اكتفت بما اولته من الجميل في اثناء اقامته في تسكانا، حتى عادت تحمّله جميلًا اكبر بمكارم جديدة . وشكر لها ايضاً ايفادها خادمها الخاص قنصلًا لديه، ليبلّغها على يديه رغباته . وقد قرر واياه تعيين ليونشيني مكان البارون المتوفى، تلافياً لاخطار الكتابة، اذا وقعت في ايدي الاعداء . واوعز الى ابرهيم نخمياس، كاتب اسرار ولده الامير علي، ان يسلمه اربعة قناطير من الحرير الجيد، المستخرج من بساتينه، ليقدمها لها عربون حفظه الجميل نحوها . وهي مؤلفة من ٢٠ بالة، اي زهاء الفين واربعمائة ليبرة تسكانية .

ثالثاً : مهمة نخمياس . وعثرنا بين الوثائق التسكانية على كتاب بالعربية وجهه الامير الى « الخواجا ابرهيم »، بصدد شحن المراكب التسكانية . وهو لا يحمل تاريخاً، بيد ان الامير اشار فيه الى مبادلة البضائع الواردة بالحرير، وهدية الكلاب التي يعدها للارشيدوقة والسلفة التي يطلبها منه التاجر الاجنبي، وغير ذلك من الشؤون المذكورة في الوثائق المتعلقة بالبعثة التسكانية، ترجح رجوحاً، يكاد يكون ثابتاً، ان الكتاب موجه الى ابرهيم نخمياس في اثناء اقامة هذه البعثة في بلاد الامير ويستدل من فحواه انه كتب قبل شحن المراكب . ولما كان القنصل قد اعلن في رسالته التالية ان

الشحن بوشر في ٢٤ شباط، فالكتاب حرر على الارجح في اواسط او اوائل هـذا الشهر واليك حرفه :

[٦٤٨] المعروض على اعز المحبين[١] الخواجا ابراهيم سلمه الله تعالى والفاقي[٢] وصل مكتوبكم وفهمنا مضمونه وماد كرتم ان عملتوا باذار القماش مع الانجار وا كتلتو القماش حطيتوه عند الشيخ ابو رعد وجانا دفتر بالقماش واسعاره وسعر الحرير من الشيخ ابو نادر ود كر لنا الشيخ ابو نادر ان فاضل عند الشيخ ابو رعد بعض حرير وباقي عند التجار قماش مليح ان كان بيمكن تعملو لنا بازاره علي قدر الحرير ود كرتوا ان الاربع قناطير حرير وزنتوها وعملتوها بالات وحزمتوها وسلمتوهم اياها كما امرناكم[٣] وما د كرتو ان التجار الدى جوا[٤] الي عندنا معكم في القاع وطلبوا منكم انكم ترسلو تعلمونا انهم معتازين ثلاث اربع الاف قرش لاجل تكملت وسق المراكب[٥] وحط مال كمرك وطلبوا اننا نقرظهم المبلغ المدكور وواصل اليكم رجعة تعطوها الي سي عزز الدين والشيخ ابو رعد يسلموا التجار على يدكم اربع الاف قرش يكملو وسق مراكبهم ويحطوا موجبهم على عادت التجار ويتوجهوا مع سلامت الله وواصل لكم كلبه رهاويه احسن جنس

(١) هذا اللقب كان يمنح صاحبه رتبة شرفية له ولذريته

(٢) والباقي

(٣) اشارة الى القناطير الاربعة التي ارسلها هدية الى الغراندوقة

(٤) هذا ايضاً يؤيد ما قلناه عن تاريخ الكتاب . بقية الصفحة مكتوبة كلها على الهامش . لان من عادة ذاك العهد على ما يظهر ان يبدأ كبار القوم الكتاب في اسفل الورقة اذا وُجه الى من هو اوضع منهم مقاماً . كما ان رسائل فخر الدين الى الغراندوق تبدأ في رأس الورقة . بيد ان الامضاء يوضع في الصفحة الاولى اذا كان الكتاب مؤلفاً من اكثر من صفحة

(٥) سيأتي الكلام عن هذه السلفة في تقارير القنصل، فيصبح دليلًا ثابتاً على ان هذه الرسالة كتبت بشأن التجار التسكانيين

الكلاب الدى في هده البلاد تحطوها مع الكلاب الدي ارسلناهم
حتي يبقا كلبين دكوره و كلبتين اناتا[١] وان طلبوا التجار ان يعطوكم
كفيل وتمسك تقولو لهم حضرة الامير ارسل الينا ان ما بيعتاز كفيل
ولا تمسك بل يقولو الى استادهم اننا اعطيناهم اربع الاف غرش نقد
حتي كملو وسقهم ولو يكون عندنا اغلال وسق المراكب كنا اوسقناها
جميعها من عندنا من غير طوله ولا تمن ونحن ما صار عندنا بروده في
تحصيل الغله الا مجي اليهودي الدى ارسلوه الى حيفا وانت بتعرف
ايش بقا يرسل اليهودي كلام من حيفا الي المراكب الدي بيجو الى
عكا وايش بقا يقول ويفهم وفي هده الوجه قلنا لـه في بالنا ان لو
يكون بيرسلو مراكبهم الي جانبنا ما جا هدا اليهودي الي حيفا واحكا
هده الكلام وفعل هده الفعايل ومنعلم ما بيقدر هدا اليهودي يعمل
شي بغير امرهم وان كان انت ما بتحكي في حق هدا اليهودي هدا
الكلام والا حضرت علي بك[٢] يحكى لهم وانت اعمل ترجمان
[٦٤٨ ق] ومن جهة الدي بيعمل البارود قوي ابطيتو عليه في حاجته
وازعلنا وهوا قاعد بطال وطريقين تلاته ردنا نعطيه اجازه يروح الي
عندكم اما ارسلو لو حاجته واما ارسلو عرفونا حتي نرسله الي عندكم
وان سالتم عن كمال جانا من عنده ورقه انه بخير وان زالت عنه الحمه
يكون علي علمكم

الفقير
فخر الدين معن[٣]

---

(١) ليهديها الى الارشيدوقة، كما سيأتي الكلام
(٢) الامير علي بن فخر الدين (خ ٤)
(٣) ف ٣٣٩ - ٣٦١

٤ ـ **تقارير القنصل** ـ للقنصل فرنسيس داڤراتسانو، عدة تقارير قدمها الى البلاط التسكاني، نعدّها من اثمن ما حفظته لنا الخزائن المديشية عن المدة التي قضاها القنصل في لبنان (١٦٣٠ — ١٦٣٢) . فهي تصف لنا فخر الدين في آخر سني نشاطه العمراني والسياسي، ولبنان في اوج عزه ورخائه

اولًا : الآثار . وفيها ايضاً كما رأيت وصف للآثار اللبنانية، خاصة بعلبك، يصح ان نعده وثيقة تاريخية لمعرفة حالتها قبل زلزال السنة ١٦٥٩، الذي أتم خرابها .

وقد نشرنا لك تقريريه الاولين عن وصوله ومقابلته للاميرين علي وفخر الدين، وما شاهده من الآثار والقلاع والقرى . وله ايضاً تقرير ثالث، كتبه في ٢٦ شباط ١٦٣١ الى احد موظفي القصر التسكاني، نعرب لك اهم فقراته :

« اطمئنك عن احوالنا الموفقة وعن عودتنا بصحة تامة من القاع، حيث يقيم الامير . وقد قابلني مقابلة خاصة، ثم قابلنا علناً بصفة تجار . ولكي تنطلي الحيلة على الحاضرين من الاتراك امر ان يُقرأ جهاراً الفرمان الذي منحنيه السلطان[1]، فخفتت الاصوات القائلة ان مراكب الغراندوق جاءت الى صيدا لاغراض بعيدة عن التجارة .

« استغرقت رحلتنا عشرين يوماً، قضينا منها ستة ايام في القاع، واربعة عشر في الطريق ذهاباً واياباً، لم نخرج فيها من بلاد الامير، مع اننا لم نرَ من مملكته نصفها . فقد ذهبنا في طريق وعدنا من اخرى . والتقينا باربع او خمس قلاع، منتصبة على مشارف عالية منيعة . بيد انها مبنية بلا نظام .

« وزرنا قبر نوح[2] الذي يبلغ طوله خمسين خطوة . وقيل لنا انه لم يبق منه اكثر من نصفه، وان نوحاً مقبور فيه في بطن الارض على عمق اكثر من ذراع . ولهذا المزار عند المسلمين مكانة كبيرة، ولا يأذنون بدخوله للمسيحيين او لليهود . بيد انهم لم يمانعوا في دخولنا لاننا كنا برفقة الشيخ ابي نادر، كاتب سر الامير وقائد الخيالة في جيشه .

(١) ذهب مرارًا الى الاستانة، كما سيأتي ذكره في كلامه

(٢) كرك نوح . راجع فيه الدويهي (د ١١٩)

« وشاهدنا ايضاً مدينة بعلبك وقلعتها، المبنية بلا كلس . فيها من الحجارة ما يبلغ طوله من اربعين الى خمسين ذراعاً بعرض اربعة عشر او خمسة عشر . وهو ما يصعب تصديقه على من لا يراه بعينه . وباني هذه القلعة سليمان الحكيم . وفي المدينة جامع، كان قديماً كنيسة للنصارى، شاهدنا فيه زهاء خمسين عموداً من الحجر السمّاقي، يبلغ حجم كل منها من تسعة الى عشرة اذرع، وعلوه زهاء ثلاثين ذراعاً .

« وشاهدنا ايضاً قبر المرأة التي جذبت سليمان الى الوثنية[1]، وفيه خمسة وعشرون عموداً من الحجر السمّاقي . وهو يبعد عن بعلبك زهاء ميلين .

« سهي عني ان اخبرك ان في القلعة المذكورة ستة وخمسين عموداً من الرخام الابيض، حجم كل منها زهاء اثني عشر ذراعاً، لكنه مركب من قطعتين واحياناً من ثلاث . وهي تؤلف دائرة داخل القصر وتحمل عقداً كله بالرخام، نقشت فيه بالازميل رسوم نافرة في غاية الدقة والاتقان . ومعظم هذا القصر في حالة خراب لمرور الزمن عليه، ولان الامير فخر الدين هدم جانباً منه[2] .

« وفي مملكة الامير كثير من الآبار والانهر . منها نهر قد حوله عن مجراه، وجره مسافة ستة او سبعة ايام حتى اوصله الى القاع، اراحة للقوافل المارة بهذا المكان، فتنفق فيه النفقات الطائلة[3] .

« في ٢٤ الجاري بوشر شحن مراكب الغراندوق، ثلاثة منها قمحاً والرابع ارزاً، والخامس نصفه قمحاً ونصفه ارزاً، على ما بلغني . الاجواخ والحرائر التي جلبها ميتشيري كان الامير يرغب في اخذها بالسعر الذي يحدده المذكور، ويعطيه لقاءها حريراً بالاسعار الدارجة هنا . فلم يوافقه ميتشيري على ذلك، وينوي تصريف قسم منها في دمشق . واملي بالله، بالرغم من العراقيل التي وضعها ميتشيري، ان يعود البرنامج الذي رتبته بالفائدة على المدينة كلها وبنتيجة لائقة باسم سموه . وقد كلفت ليونشيني تنفيذه[4] .

---

(١) ذكر الكتاب المقدس ان سليمان احب نساء من صيدا ومصر وغير اماكن دون ان يذكر اسماءهن (سفر الملوك ٣ : ١١) .

(٢) لاسباب حربية، ثم اعاد بناءه . ر ص ٨١

(٣) يقول الدويهي انه بنى قناة القاع في السنة ١٠٣٧، البادئة في ايلول ١٦٢٧ (ز ١٣٥)

(٤) ف ٣٦١ - ٣٦٥

ثانياً : هدية الامير علي . وكتب الامير علي في ٢٦ اذار الى الغراندوقة بالايطالية يشكر لها هديتها، « التي لم يكن بانتظارها لانه لا يستحقها » . ويرجوها ان تحول ليونشيني قيادة احد المراكب مكان البارون المتوفى . ويختم بقوله « اقـدم لسموك نفسي وبلادي ورعاياي وجميع ما املكه، لتتصرفي فيها تصرفك في ملكك » .

وكتب في اليوم التالي الى الغراندوق يشكر له تعيين القنصل، ويخبره انه خصص له جناحاً في قصره، وكلف كاتب اسراره ابرهيم نخمياس ان يلبي رغائبه ويساعده في مهمته . ويشكر له ايضاً ارساله المراكب لفتح باب المتاجرة بين لبنـان وبلاده . وحال وصولها اصدر امراً يمنع فيه بقية التجار من شراء القمح، ليتسنى لمراكب سموه شراؤه بلا عاقة وباسعار متهاودة . ويقول في ختام رسالته « شجعني كتابك على اهداء سموك جواداً بعدَّة شرقية، هو اجود ما عندي . فارجو قبوله والتمتع به حباً لي . واني اعدّ نفسي مديناً لسموك بكل ما لقيه والدي من الضيافة والمساعدات في اثناء اقامته في تسكانا . لذلك تراني مستعداً لخدمة سموك بكل جوارحي وفي كل فرصة . وانا بانتظار اوامرك لالبيها على الراس والعين

عن صيدا في ٢٧ اذار ١٦٣١ — الخادم المخلص المدين لسموك

الامير علي ابن الامير فخر الدين

امير صيدا والجليل

وطوى الامير في كتابه على بيان باجزاء عدة الحصان، فاذا بها فخمة ثمينة، مرصعة بكاملها بالفيروز وغيره من الاحجار الكريمة . اما الحدائد من ركابات ولجام وغيرها فمصوغة بالفضة المطلية ذهباً . ويد الدبوس من العـاج المطعم بالذهب، ومقبضه من البلور الثمين[1]

ثالثاً : مطالب فخر الدين . وبعث القنصل في ٢٦ آذار بكتاب مطوّل الى كاتب اسرار الغراندوق، يبشره فيه ان المراكب اصبحت جاهزة للسفر بعـد ان قضت في صيدا ثلاثة اشهر ونصف الشهر . واخبره انه بُعيد وصوله تلقى ثلاث مرات الدعوة

(١) ف ٣٤٤ - ٣٤٦

من الامير لمقابلته في القاع، بيد ان ميتشيري تباطأ في الذهاب . وكان برفقتهم في هذه الرحلة الشيخ ابو نادر، قائد خيالة الامير وحاكم بيروت، مصحوباً بعشرين خيالاً وعشرة رجالة . فاستقبلهم الامير كتجار واراد ان يُقرأ علناً في مساء وصولهم فرمان السلطان الممنوح للقنصل على مسمع جمهور الحاضرين . ولما انتهت قراءته قبَّله ووضعه على رأسه وأذن له بحرية التجول في بلاده اينما شاء . ثم قابله وحده ثلاث مرات واظهر له ارتياحه الى تعيينه وما يحفظه من الجميل لآل مديشي . واردف الامير بقوله «ان كل آمالي معلّقة بالغراندوقة» . واسرّ اليه بمطالبه، واولها قارب لاتيني ببحّارته، —«يبقى تحت تصرفه ليرسل عليه وقت الحاجة خزنته وما خف حمله وغلا ثمنه[1]»—؛ على أن يشحن باسم القنصل اخفاء لقصده منه .

ويطلب ايضاً مهندساً، او رئيس بنائين، ماهراً في مدّ الجسور فوق الانهر، لان اغلب ما في بلاده منها اصبح متداعياً . ويريد ايضاً مهندساً آخر خبيراً في جرّ المياه وخزنها وبناء السبل؛ ففي جنائنه كمية غزيرة من المياه، ويردف بقوله — «ويطلب ايضاً كمية وافرة من الاسلحة للرجال والخيالة» — واشياء اخر كثيرة . وقد فكر في اعادتي الى تسكانا لاقضي له هذه المهام. ولما كنت لا اريد ان اترك مركزي دون اذن سموه اكدت له ان ليونشيني رجل ذو كفاءة وثقة ، فيقوم مقامي باخلاص وامانة في تلبية رغائبه كلها، لاسيما اذا زوّده بكتابة منه . وهكذا كلفنا المذكور تنفيذ مطالب الامير — «وسلمناه بها مفكرة كي لا يشطّ او ينسى» — . ودفعاً للشبهة في غاية عودته الحقيقية سلمته هدايا فخر الدين وولده علي الى اصحاب السمو . والامير يرجو سمو الغراندوق ان يفوض الى المذكور قيادة المركب الذي كان يتولى البارون قيادته، فيروح ويجيء تحت هذا الستار دون ان يثير الشبهات .

« وهو يحمل ايضاً قائمة بالاجواخ والحرائر التي يسهل تصريفها سنوياً في هذه البلاد بواسطة تاجر دمشقي . وهذه القائمة كتبت تحت اشراف الامير علي وبرضاه . ومنها يعرف سموه الرواج الذي تصادفه في هذه الاسواق الاقمشة التسكانية، شرط ان تكون بجودة الاقمشة التي جلبها ميتشيري ومطابقة للقياسات المدونة في تلك القائمة» .

---

(١) هذه الجملة مكتوبة بالشفرة، وهي ارقام وحروف مصطلح عليها بين الطرفين . وسنضع بين هلالين وشرطتين ما يرد في رسائل القنصل بارقام الشِفرة . وهي مفسّرة في الاصل بين السطرين

رابعاً : سلوك ميتشيري . « اخبرتك في رسالتي السابقة كيف ان ميتشيري، بعد وصوله الى هنا بخمسة وعشرين يوماً، رجا سعادة الامير علي ان يسهل عليه شراء الحبوب اللازمة لشحن المراكب . فنزل الامير عند طلبه واصدر امراً منع فيه التجار من ابتياع القمح، محتكراً شراءه لنفسه . بيد ان ميتشيري كان يرفض كل القمح الذي يرسله اليه الامير من عكا وصور، ويرخص للتجار الهولنديين والفرنسويين والانكليز بشرائه . فتمكن خمسة عشر او عشرون مركباً، جاءت بعدنا، ان تجهز وسقها وتسافر قبل مراكبنا، — « حاملة كمية وافرة من القمح وفائزة بارباح جيدة » — ولما سمع الامير بهذا التصرف امتعض اي امتعاض ونفض يده تماماً من هذا الامر . وكان في وسع ميتشيري ان يشتري الارز بستة غروش، او اقل من ذلك، لان الامير عرضه عليه بهذا السعر، فاضطر الى ابتياعه بغرش وربع الغرش وغرش ونصف الغرش[1] . وكان في وسعه ان يحصل على غرارة القمح الواردة من عكا بستة عشر غرشاً او ستة عشر غرشاً ونصف الغرش، فاضطر الى ابتياعها بثمانية عشر وتسعة عشر غرشاً .

« وكان في نية الامير ان يشتري جميع الاقمشة الواردة في مراكب سموه بالاسعار التي يحددها ميتشيري نفسه، ويقايضه بالحرير؛ بيد ان المذكور لم يسلمه سوى نصف الكمية وارسل القسم الاخر الى دمشق . فاستاء الامير من هذه المعاملة وقال « ان المركيز جيوني[2] كتب لي ان اقايض بالحرير جميع الاقمشة، وهذا لا يرضى الان ان يعمل حسب الاتفاق » . واضطر ميتشيري الى بيع الحرير حالاً لحاجته الى الدراهم، فخسر من ثمنه مئة وستين غرشاً . وعاد فرجاني ان استقرض له من الامير ستة او سبعة آلاف غرش ليسدد الرسوم وغيرها . ولما فاتحت الامير علي بامر هذا القرض احالني على والده، وهذا فوضني ان اسلمه من الدراهم حاجته كلها .

« فسلوك ميتشيري وبورشلوتي لم يكن مرضياً واستاء منه الجميع . وفي مساء احد الايام ذهبتُ لمقابلة الامير علي فسألني هل يعمل المذكوران لحسابهما ام لحساب الغراندوق . لان طريقتهما لم ترقه . فاكدت له انهما خادما سموه، اوفدهما الى هذه البلاد ليفتحا باب التجارة بينها وبين ليفورنو . فاجابني « اذا كان الامر كذلك، فاني مستدعٍ تاجراً

---

(١) لا شك ان السعرين يدلان على مكاييل مختلفة

(٢) Giugni

دمشقياً اثق به الثقة كلها، ليضع قائمة بالبضائع التسكانية التي تروج في هذه البلاد، نكلف ليونشيني تقديمها الى سموه، فيتحقق من رغبتي الخالصة في خدمة مصالحه ».
وفعلاً استدعى التاجر الدمشقي وحادثه مراراً امامي بهذا الشأن، فوضع القائمة . وانا اترك ليونشيني يتعاطى هذه التجارة، لانّي اترفع عن الظهور بمظهر الراغب في الاستفادة شخصياً . اما اذا كلفني سموه الامر، وجدني خادماً اميناً له . وساتولى خدمة مصالحه بطريقة لا يسع غيري سلوكها .

« اقلعت المراكب من هنا دون ان تدفع لي رسوم القنصلية، مع ان كل المعارضات[١]، التي وُجهت اليها، حُولت الي رسمياً . وجميع الذين خالفوا القوانين من رعايا سموه وُضعوا في السجن تحت تصرفي[٢] . فاذا شاءت سمو الغراندوقة ان تخصني بحصة من هذه الرسوم، حمّلتني جميلاً كبيراً .

« لا اكتم عنك ان القرصان اسروا رجلين من رجال سموه واثنين آخرين من خدم الامير . فاوعز الامير الى باردي[٣] بملاحقتهم واستخلاص الاسرى . فابى مدعياً انه غير مأمور بذلك . وبعد يومين وقع قارب الاسرى في قبضة رجال الامير طرابيه، عدو فخر الدين، مع ان الربان كان في وسعه اللحاق بهم لقربه منهم ».

خامساً : تبادل الهدايا . « منذ بضعة ايام قدمت للامير فخر الدين هدية القنابل والبارود التي ارسلها الغراندوق اليه . فسر بها السرور كله، لحاجته اليها، واعطى نصفها الى ولده الامير علي . ارسل الامير علي مع المراكب جواداً بعدة شرقية فاخرة، هدية الى الغراندوق . وبعث والده الى سموه بجواد وفرس من اجمل اصائل هذه الجهات، جاءته هدية من ملك العرب . ولما علم ان الامير لورنسو قد كلف ليونشيني ان يشتري له جواداً اصيلاً، اخرج له واحداً من اسطبله . وبعث الى الغراندوقة بعشرين بالة من الحرير . وكلفني ان ارجو سموها قبولها، وان قليلة، حباً له ليكذّب ما قاله عنه يوماً الوزير لورنسو، لما كان في تسكانا « ان كل ما يفعله سموه

(١) بروتستو
(٢) هذا يدل على ان الامير شاء ان يخوّل قناصل تسكانا جميع الامتيازات والحقوق المخولة في الموانئ العثمانية لبقية الدول المتعاقدة مع الباب العالي
(٣) Bardi ربان احد المراكب التسكانية

في سبيله ذاهب سدى » . وقد تمرمر الامير امامي كثيراً من لورنسو المذكور[١] . واهدى الى الارشيدوقة اربعة كلاب صيد، ذكرين وانثيين . واقسم امامي ان احدها قد اصطاد هذه السنة خمسين غزالاً وحده . وانعم على ميتشيري بثلاثين ليبرة من الحرير، وعلى ليونشيني بمثلها . ووعد هذا الاخير، ان هو احسن التصرف، ان يعامله عند عودته افضل معاملة . وانعم علي انا بمئة وعشرين ليبرة، ارسلتها مع ليونشيني ليبيعها ويستفك بعض اغراضي المرهونة .

« اشرت في رسالتي السابقة الى الاضطهادات التي اثارها علي ميتشيري وبورشلوتي واخواهما . وقد تجاسروا ان يتفوهوا ضد الامير علي بكلام غير لائق . وسيبوح لك ليونشيني بهذا الخصوص بما تدهش له[٢] »

٥ - بعثة المهندسين والفلاحين - لم يكتفِ فخر الدين بان يطبق في مملكته انظمة الغربيين، التي خبر منفعتها وهو مقيم في ايطاليا، بل فكر في الاستعانة بخبرائهم لاتمام رقيها . فرجا البلاط التسكاني ان ينتقي له لجنة من المهندسين والبنائين وبضع أسر من الفلاحين الماهرين ليعملوا في بلاده، وكلف القنصل التسكاني السعي في هذا الامر .

اولًا : رسوم القنصلية . ولما كانت القنصلية التسكانية الواسطة التي كان يستعين بها على بلوغ هذه الاغراض رجا الغراندوقة ان تخصص بها رسوم المراكب التسكانية القادمة الى لبنان، فيضمن لها ايراداً وبالتالي مركزاً ثابتاً .

فكتب القنصل عن لسانه في ٢٦ اذار ١٦٣١ بهذا الخصوص، واردف بقوله : «ان النقود المضروبة حديثاً والمرسلة مع المراكب صادفت في هذه الاسواق الثقة والرواج . والوطنيون يأتون يومياً في طلبها . فاصبح ميسوراً تصريف اي كمية منها » .

وكتب ابرهيم نحمياس في التاريخ عينه الى المركيز جيوني يخبره ان قنصل فرنسا في صيدا ادّعى بحقه في رسوم المراكب التسكانية الواردة الى ذلك الثغر . وبعد

(١) ر ص ٢٦
(٢) ف ٣٤٧ - ٣٥٢

جدال طويل اجابه الامير علي « ما دام الغراندوق قد عين له في هذه المدينة قنصلًا خاصًا، فله وحده الحق في هذه الرسوم » . مما حمل القنصل الفرنسوي على رفع شكواه الى وزير مليكه، كما سيأتي الكلام .

وكتب ايضاً نخمياس المذكور في ٢٨ اذار نفسه الى الغراندوق عن الخيل التي بعث بها الامير من القاع هدية له، انها اجود ما في مملكته .

وفي الرسالة المذكورة اعلاه، التي وجهها القنصل الى ديورجو كاتب اسرار الغراندوقة، الح في تلبية طلبات الامير كلها . « اما الاشياء التي لا تفكر سموها في اهدائها اليه فالاوفق ان تقرض ليونشيني المبلغ اللازم لشرائها . ولا شك ان الامير يرسل ثمنها مع الغلايين التي تجلبها . ولتكن الاجواخ المصدّرة الى هذه البلاد مبطّنة بالحرير الابيض، الذي اهداه الامير الى سموها ، فتلقى رواجاً اكبر واسعارًا اعلى . والتجار البنادقة يتمشون على هذه الخطة » .

ويخبره ايضاً ان فخر الدين اقرض ميتشيري ثلاثة آلاف غرش . ولا بد، لحسن سمعة البلاد، ان تعاد اليه مع المراكب القادمة . لان ميتشيري يفكر في تحويل الامير على بعض الديون التي تركها هنا .

ثانيًا : لائحة الخبراء . واليك لائحة الخبراء الذين طلبهم الامير لخدمته :

١ طبيب ماهر، ولا بأس ان يصطحب معه اجزائياً .

٢ مهندس خبير في بناء القصور والجسور والتحصينات . وله ان يجلب معه نجاراً ليساعده في مهمته .

وللغراندوق ان يعين لهؤلاء رواتب شهرية او سنوية . وعلى ليونشيني ان ينقلهم الى لبنان على نفقة الامير، الذي يعاهدهم ان يقدم لهم السكن والطعام .

٣ رئيس بنائين لجرّ المياه وآخر لبناء السبُل وزخرفتها بالنقوش .

٤ جنائني .

٥ خباز [1] .

---

(١) لتعليم ذويه عمل البقسماط اللازم للعسكر . ويدعى بالايطالية Galletta « جالّيتّه » (بالجيم المفخمة) . وهو اصل كلمة « جَلّيطه »، التي يطلقها سكان بيروت حتى يومنا هذا على اصناف الكعك

٦ ست او ثماني عائلات من الفلاحين ليدربوا اللبنانيين على طرق الزراعة الدارجة في ايطاليا . وليجلبوا معهم الادوات الزراعية اللازمة لاعمالهم، وليشتري ليونشيني لكل منهم زوجي ابقار من اجود ما في بلادهم . واذا كانوا متزوجين فليصطحبوا معهم عيالهم . والامير يقدم لهم المنازل اللائقة بسكناهم اينما حلوا، ويعين لهم رهباناً لاقامة القداس حسب رغبتهم . ومتى شاؤوا الرجوع الى اوطانهم اعادهم على نفقته

ثالثاً : المشترَيات . وامر فخر الدين ليونشيني ان يشتري له :

١ قدحين من البلّور الجبلي[1] .

٢ ثلاثة قوارب للمائدة من فضة يسع الاول منها ثلاث دجاجات والثاني دجاجتين والثالث واحدة .

٣ اربع بقرات حلوب وثوراً من اجود واجمل الابقار التسكانية واكبرها . لان التي جلبها معه البارون كانت صغيرة وغير مستوفية شروط الجودة .

٤ كلبين من الجنس البولوني الكبير، المدرَّب على صيد الخنازير البرية . والامير يلح في الحصول عليهما .

٥ كلبين آخرين من الجنس الانكليزي او الكرسيكي، الذي يهجم على الانسان، ليصحباه في روحاته وجيئاته

٦ اربع اناث من الاجناس المذكورة .

٧ كلبين، ذكراً وانثى، من ذوات الشعر الاسود والآذان الطويلة . ولا بأس ان تكون حلتهما بيضاء او منقطة .

٨ كلبين آخرين، ذكراً وانثى، من اصغر الكلاب حجماً .

وكلف كاتب اسرار الامير علي ليونشيني ان يبتاع لسيده :

١ زوجين من الحلَق، في كل منهما حجر كبير من الياقوت، او على الاقل من اللآلئ الكبيرة .

٢ مدفئتين صغيرتين للفراش، من معدن الفضة .

٣ اربعة شماعدين من الفضة ومن ذوات الفروع .

(١) Cristallo di montagna وهو اجود انواع البلَّور

رابعاً : اسماء الخبراء ورواتبهم . وكتب فخر الدين الى المركيز جيوني يشير عليه ان يكلف القنصل دا ڤراتسانو الإشراف على التجارة التسكانية في لبنان، لخبرته في شؤون البلاد .

وانتخب البلاط التسكاني لخدمة الامير الخبراء الآتية اسماؤهم :

« اسماء المسافرين الى الامير :

« السيد متى نالدي الطبيب، من مدينة سيينا مع خادمه براتب الف ومائتي سكوت سنوياً ، خلاف نفقة السفر

« المعلم فرنسيس تشيولي النحات والمهندس، براتب شهري قدره اربعون سكوتاً، خلاف نفقة السفر .

« المعلم فرنسيس فاني البنّاء، براتب ١٦ سكوتاً في الشهر، خلاف نفقة السفر .

« بطرس بوتشي كيليني الخباز . راتبه الشهري عشرة سكوت، خلاف النفقات . تعطى له هبة ٢٥ سكوتاً مرة واحدة

« وقد حوّل السادات كاپوني[1] هذه المبالغ على البنك لتصرف لهم في فلسطين . وهم يسددون ايضاً نفقات سفرهم على المراكب التي يجهزها اصحاب السمو .

« واعطي الطبيب نالدي ثلثمائة سكوت على الحساب وفرنسيس النحات ستين، وبطرس كيليني عشرين ليعمل عدة الفرن، وعشرين اخرى على سبيل القرض، ومثلها للبنّاء» .

وعثرنا على شهادة في الطبيب نالدي تاريخها ١٦ حزيران ١٦٣١، جاء فيها « انه اعزب، له بعض المعرفة باليونانية، والمام بالعبرية، وهي اكثر فائدة له في تلك البلاد من اليونانية . وهو هادئ المزاج، حسن التدبير والسلوك بين الناس . يعرف بعض الشيء من علمي الكيمياء والتقطير » .

وعثرنا ايضاً على كتاب توصية « بشاب بلغ العقد الثالث من عمره . مارس الاجزائية منذ اثنتي عشرة سنة في المستشفى الكبير . نشيط واعزب » . واكبر الظن انه رافق الطبيب ، لان القنصل يتحدث في تقاريره عن مساعد للطبيب نالدي اصطحبه الى صيدا .

(١) Matteo Naldi. Cioli. Fagni. Piero Bocci Chelini. Capponi.

خامساً : هدايا البلاط التسكاني . دهش البلاط التسكاني لهدايا الامير الفاخرة فبادله بنفائس البلاد .

ارسلت اليه الغراندوقة ثلاثة قوارب من فضة، بشكل القدور مع اغطيتها، ومصفاة ومغرفة وعطّارة من ذات المعدن . وحنجورَي ترياق وذهب سائل . وارفقتها بثوبين قرمزيين صنعا من الحرير اللبناني الذي اهداه الامير لها .

وارسلت الى ولده الامير علي مدفئتين من فضة . والى ابرهيم نخمياس شمعدانين واثنتي عشرة ملعقة من المعدن ذاته .

وارسلت ايضاً صندوقاً من الاواني الكنسية لمعبد القنصلية التسكانية في صيدا . وكان يخدمه الآباء الفرنسيسكان .

وارسلت مرضعة الغراندوق قزما الثاني صندوقاً من الهدايا الى خاصكية زوجة الامير .

واهدى الغراندوق الى فخر الدين قارباً كبيراً للطعام وكأستين وقدحاً، وابريقاً لغسل اليدين، كلها من الفضة المطلية ذهباً . وارفقهـا بعلبة تحتوي حربات صغيرة للفصد، وبثلاث علب من النظارات، فضلاً عن منظار كبير لرؤية الابعاد .

واهدى الى ولده الامير عـلي قفة للخبز من فضة، ومملحة واربع كأسات وثلاثة زوارق للطعام، وقدحاً وابريقين للشرب . فضلاً عن ابريق للخل والزيت ومملحة وملعقتين وشوكة وسكين، ومِسواك لتنظيف الاسنان . وكل هذه الاواني مصنوعة بالفضة المطلية ذهباً . واضاف اليها قارباً كبيراً للثلج واناء للتبريد وخيمة من الحرير وسطرنجاً من الابنوس . وطاولة لعب ازهارها وحجارتها من الكهرمان، ونظارة على طريقة جليليو . وكمية من الالعاب البيتية .

واهدت الارشيدوقة الى فخر الدين كرَّة كبيرة من الرخام المطعَّم راكزة عـلى قاعدة من الابنوس . ومائدة عليها رسوم مـدن وقصور وحصون وما شاكل ذلك . وصندوقاً صغـيراً من الرخام يحتوي عقاقير ثمينة مختلفة الاصناف، خارجة من معمل الغراندوق . ومكتباً من الرخام بادراج ظاهرة وخفية، ملأى بطرائف تسكانية من زهور حريرية بالوانها الطبيعية، وكفوف، وعطور تحرق في الغرفة، واكياس نقود من ذهب وحرير، وعلب لحفظ المجوهرات، وما شاكل ذلك .

وكتبت الغراندوقة الى فخر الدين تشكر له هديته الكبيرة من الحرير . وتعترف بعجزها عن مجاراته في ميدان الكرم للوباء الذي يفتك منذ سنة في البلاد التسكانية .

وكتب كاتم اسرارها الى القنصل يوصيه خيراً بالخبراء القادمين وابلاغ فخر الدين شكر سيدته لعطفه على رعاياها . « وهي لو امكنها التنبؤ برغباته للبتها عن طيبة خاطر » . ونبهه في آخر الرسالة ان النقّاش قد حجز عن السفر نزولاً على طلب دائنيه [1] .

---

(١) ف ٣٥٢ - ٣٦٣

الفصل الثالث

مهمة الحاقلاني

١٦٣١ - ١٦٣٣

١ - ارسالية الحرير - رأى فخر الدين ان يحتاط لنفسه ولاولاده الصغار من غدر الزمان فعقد النية على ان يودع سنوياً مصرف الرحمة في فلورنسا[1]، مبلغاً من المال؛ حتى اذا انقلب عليه الدهر، او جار من بعده اولاده الكبار على صغاره، استعان او استعانوا بالمال المذّخر . وكانت ثقته بالمندوبين التسكانيين قد ضعفت فكلف ابرهيم الحاقلاني، احد اعلام المدرسة المارونية برومية[2]، مهمة بيع كمية من حريره في تسكانا وايداع ثمنه المصرف المذكور . فضلاً عن قضاء بعض مهامّ اخرى، كشراء اسلحة وذخائر وانتقاء خبراء في صب المدافع، وغير ذلك مما يجيء تفصيله . واليك كلمة في هذه المهمة .

اولاً : غاية الارسالية . لدينا عن ارسالية الحرير الاولى وما لحقها من المصاعب والمشاكل وثائق جمة، نشرنا اهمها في الجزء الاول، ورأينا ان نكتفي هنا بتلخيصها ، لان هذه الاهمية ثانوية في التاريخ . بيد ان التقارير الخاصة بها قد تخللتها اخبار لها المكانة الاولى في حياة اميرنا في السنتين الاخيرتين من ولايته . ولعلها امجد السنين، وان ختمتا بمصرعه .

---

(١) اعجب الامير بنظامه ومنافعه، فوصفه في مفكرته (خ ٢١٩)

(٢) له تآليف عديدة في مواضيع مختلفة . منها هندسة ابو لونيوس البرجي، نقلها من العربية الى اللاتينية، نزولاً على رغبة فردناندو الثاني غراندوق تسكانا . واشترك في ترجمة الكتاب المقدس الى عدة لغات، Polyglotte ، المنشورة في باريس . نشر في رومية سنة ١٦٢٨ اجرومية عربية . وتوفي فيها سنة ١٦٦٤ . راجع عنه المشرق ٢٨ : ١٦٨ و٣٤٣ . والدبس ٣٨٥ . وملخص كلام الرحالة دلاروك فيه، المنشور في الدويهي (د ٢٣٩) .

كان للامير ثقة عظيمة بالغراندوقة ، جدّة فردناندو الثاني ، وله عليها دالّة الولد على والدته . فرجاها الاهتمام باشغاله وامر مندوبيه ان يتقيدوا باذنها واوامرها . وخوفاً من ان يأتي هذا التخصيص ماساً بشعور الغراندوق حفيدها ، والارشيدوقة كنتها ، وجه في ٨ تشرين الثاني ١٦٣١ الى الثلاثة معاً كتاباً ، يخبرهم فيه انه سلم قنصلهم في صيدا اثنين وعشرين قنطاراً من الحرير الابيض البيروتي ليتولى شحنها الى ليڤورنو ، وكلف خادمه ابرٰهيم الحاقلاني ومندوبهم ليونشيني ان يسعيا لبيعه في تسكانا باسعار موافقة ، وتسليم ثمنه اليهم ، ليشتروا باسمه وباسم اولاده الصغار سندات من مصرف الرحمة بفلورنسا . وختم بقوله « تجرأت على هذا الطلب نظراً الى الصداقة وتبادل الخدمات بيننا . واني مقدم ذاتي واولادي وبلادي تلبية لرغباتكم » .

والكتاب بالايطالية من نص القنصل التسكاني ، بيد انه وقعه بالعربية « خادمكم فخر الدين » . ومهره بختمه « مفخر آل معن فخر الدين ١٠١١[١] » .

وكتب في التاريخ عينه الى الكردينال مديشي يشكر له تكرمه بصندوق الكتب الذي اهداه له ، ويرجوه ان يقبل منه بالة حرير كلف الحاقلاني تقديمها له ، « فهي من ثمار بساتينه » .

وكتب ايضاً في اليوم نفسه الى الغراندوقة يشكر لها هداياها وعنايتها بانتقاء الخبراء الذين طلبهم ، وقد جاؤوا عند حسن ظنها بهم .

وكتب اليها حافظ الاراضي المقدسة الفرنسيسكاني شكراً على تبرعها بالاواني الكنسية لمعبد القنصلية في صيدا ، ويخبرها ان الاتراك طردوه من القدس ؛ وادعى ان المرسلين اليسوعيين ما دخلوها الا لينزعوا الولاية على هذه الاماكن من رهبانيته ، ويختصوا بها .

وعثرنا على كتاب مؤرخ في ١٠ تشرين الاول ١٦٣١ ، وجهه الى الغراندوقة الاب يعقوب من ڤاندوم[٢] ، خادم الناصرة الفرنسيسكاني ، يبشرها فيه ان رهبانيته قد تملكت[٣] بيت العذراء في هذه المدينة ، وكان قد تحول الى مستودع اقذار ، وجبل طابور وكنيسة طبرية . ويسالها ان توصي برهبانيته الامير فخر الدين .

---

(١) تبدأ في ٢١ حزيران ١٦٠٣

(٢) P. Jacques de Vandosmes

(٣) بمساعدة فخر الدين ر ص ٦١ و٦٢

ثانياً : التوصية بالحاقلاني . وللقنصل التسكاني كتاب مطول وجهه في ٣٠ تشرين الثاني ١٦٣١ ، الى احـد موظفي البلاط التسكاني يشكو له المدعو كورتيزي[1]، المكلف قيادة مركبي الغراندوق الاخيرين، انـه لم يسدد له رسوم البضائع المستحقة للقنصلية، بل تجاسر فرفع عليه دعوى لدى قنصل فرنسا، مدعياً انه وريث البارون دلاجر، المدين له . فكأنه بعمله هذا حاول ان يخضع سلطة مولاه لمحكمة اجنبية . مع انه ساعده كثيراً في مهمته . فقد كان حاكم عكا غرّمه الفين وخمسمائة ريال لمخالفات ارتكبها في معاملاته التجارية، فتوسط له لدى الامير حتى استرد المبلغ، قسماً منه نقداً والبقية قطناً .

ثم يقول انه كلف ليونشيني ان يعطيه ما شاء من بذور القرنبيط[2] ، وانه ينتظر من دمشق اغطية السرائر ، التي اوصته الغراندوقة عليها . وسيصحبها بالقطن المغزول والغير المغزول ، الذي ترغب فيه سموها . وان الامـير سلمه خمساً واربعين بالة حرير ابيض ، والبالة خمسون رطلا ، اي ثلثمائة ليبرة . بالة منها تقدم هدية للكردينال مديشي ، والبقية تباع بمعرفة الحاقلاني وليونشيني . والحاقلاني خادم الامير الامين ، مسيحي من تباع الكنيسة الرومانية . فان صادف في تسكانا معاملة حسنة كتب الى بلاده فطاب الامير نفساً . وثقة الامير بالغراندوقة عظيمة ، لا تقل كثيراً عن ثقته بالله تعالى . وقد اوصى الامير الحاقلاني ، قبيل سفره ، ان يشتري له نحاساً ويصطحب معه في عودته خبيراً في صب المدافع .

« اما الحرير فليودع ثمنه مصرف الرحمة باسم الامير واسم اولاده الصغار الثلاثة : حسين وحسن وحيدر[3] ، حراً من كل قيد، ليتسنى له او لأولاده سحبه او سحب جزء منه متى شاؤوا . اما النحاس وغيره مما يرغب الامير في شرائه من تسكانا فمن رأيي ان يسلم وكيله ثمنه على سبيل القرض المضمون بمبلغ الحرير المودع . ولا شك عندي ان الامير يسدده حال تسلمه الاغراض المطلوبة . فيتشجع على ان يرسل سنوياً كمية من الحرير توازي الحاضرة ، ان لم تزد عنها . وما حمل الامير على هـذا التذخير

(١) Cortesi

(٢) كان هذا الصنف نادراً في ايطاليا ، كما جاء في مفكرة الامير (خ ٢١٧)

(٣) حسين وحسن وحيدر . الاول رزقه من ابنة سيفا ، والآخران من خاصكيه، على الارجح .

خوفه من ان يُحرم اولاده الصغار بعد موته الحكم والارث . لان بكره الامير علي يحكم البلاد . ولابنه الثاني ، المدعو منصور ، روح جهنمية بالرغم من صغره . وقد باح لي الامير انــه عاقد النية على ان يدّخر لاولاده الصغار سنوياً من الحرير كمية مماثلة ، فيضمن لهم دخلاً ثابتاً .

« اذا شئتم تصدير اجواخ وحرائر الى هذه البلاد فعليكم بالحرير اللبناني، الذي ارسله الامير . وقد قابل الثوبين، اللذين ارسلتهما اليــه الغراندوقة، المنسوجين بالحرير اللبناني، مع الاقمشة الواردة من البندقية، فوجدهما اجود منها. وقد تكلف اقل منها. ونظراً للوباء الفاتك في البندقية لم يرد منها هذه السنة الى هذه الجهات سوى مقدار قليل من الاقمشة لا يكفي مطلوب الاسواق . فالفرصة سانحة لتصدير الاقمشة التسكانية وترويجها هنا .

« على التاجر كورتيزي ان يسدد لي ستمائة سكوت رسم البضائع التي صرّفها هنا، وثمنها عشرون الفاً، اي باعتبار ٣٠٪ من الرأسمال » .

ويختم بقوله انه سدد الى ربابنة المركبين نفقات سفر الخبراء، اي البنّاء والخبّاز والنجار باعتبار خمسين قرشاً عن كل منهما . اما الباقون فلا يعرفهم . وقد حسم على الربان ١٨ قرشاً، لانه كان سلمه في الرحلة السابقة ثلاثة قناطير من الكتّان[1] وكمية من الارزّ ليوصلها الى ذويه في تسكانا فاختص بها . « امر الامير الحاقلاني وليونشيني ان لا يبيعا الحرير او قسماً منه دون اذن الغراندوقة. واذا رأت سموها ان تبعث بقسمٍ منه الى اسواق لوكا وجنوقا، فالراي رأيها » . وقد نبّه القنصل على ليونشيني « ان يفتح عينيه في خدمة الامير، وان لا يتصرف بالحرير دون موافقة الحاقلاني، الذي اوفده الامير لهذا الغرض » .

وفي ملحق الكتاب يخبر ان « الامير سافر في ٣٠ الجاري[2] الى بيروت فطرابلس. لانه سمع بعزم الوزير القادم من بغداد ان يقضي فصل الشتاء في حلب . وانه ارسل قسماً من الجيش ليقضي الشتاء في دمشق وطرابلس . اما فخر الدين فيأبى قبول الجيش

---

(١) هذا يدل على ان الامير، بعد رجوعه من ايطاليا، شجع زراعة هذا الصنف في بلاده، وكان سابقاً غير معروف، كما يستدل من مفكرته (ر ص ٥٠)

(٢) تشرين الثاني ١٦٣١

العثماني في طرابلس . وفي نيته ان يمنعه بالقوة، اذا اضطره الامر، على ان يعوّض عليه بمبلغ يقدمه له . وقد افهمني الامير ذلك مشافهة » .

وكتب دا ڤراتسانو في التاريخ نفسه الى الغراندوق يشكر له الانعام عليه برخصة القنصل الرسمية، ويرجوه بلسان الامير ان يمنع القرصان التسكانيين، وغيرهم ممن يجهزون مراكبهم في ليڤورنو، عن التعدي على بلاده. فقد تجاسروا اخيراً ان يرموا بقنابلهم قصره في صور، مع ان اخاه الامير يونس[1] احسن معاملتهم. ولثقة الامير بالغراندوق اعتمد ان يضع سنوياً بين يديه مبلغاً كبيراً من المال . ثم يشكو اليه كورتيزي المذكور، لتمنعه عن تسديد رسوم القنصلية، ورفعه الدعوى عليه لدى محكمة القنصلية الفرنسوية[2] .

ثالثاً : سلوك التجار التسكانيين . وكتب القنصل ايضاً الى الارشيدوقة يشكر لها بلسان الامير هدية «الكلبة الصغيرة» التي سر بها السرور كله . وتمنى لو ضمت اليها ذكراً من جنسها ليرافقها » .

وفي كتاب للقنصل نفسه بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٦٣١ الى احد موظفي الغراندوق يكرر الشكوى من سلوك كورتيزي، الذي رفع عليه دعوى في محكمة القنصلية الفرنسوية في صيدا، بدلاً من ان يدفع له الرسوم المستحقة على بضائعه، مع انه منذ حلوله في لبنان يجاهد في تحرير رعايا سموه من سيطرة الاجانب. ويدّعي الربان المذكور ان القنصل وريث البارون دلاجر مع ان صناديق الزجاج، التي تركها، سُلمت بامر الامير الى الطبيب مرلينو[3] دائنه، والايقونة وسلسلتها، التي انعمت بها الغراندوقة عليه، استفكها الامير من راهنها ابرهيم نحمياس ومنحها لليونشيني .

وكتب ايضاً في التاريخ عينه الى الغراندوقة يخبرها انه قصد من صيدا الى فخر الدين فوجده قد كلف البنّاء التسكاني مدّ جسر على النهر[4] . وقد وضع بين الحجر الاول والثاني قرشاً من فضة يحمل رسم الغراندوق قزما الثاني ولدها . وقال له « ليس عندي

---

(١) الساكن فيه

(٢) ف ٣٦٣ - ٣٧١

(٣) Merlino

(٤) النهر الاولي بقرب صيدا . ولعله الجسر الحالي . كان قائماً سنة ١٧٦١، التي شاهده فيها ماريتي ر ص ١٥٦

ما اضعه هنا اعز من هذا الرسم »، مما يدل على عظم محبته واحترامه للبيت المديشي وحفظه الجميل لولدها .

وختم الكتاب بقوله « ان حافظ الاراضي المقدسة، النازل عليّ ضيفاً ، كان اول من ارتدى الثياب الكنسية التي تبرعت بها لمعبد القنصلية في صيدا . وقد اصدر امره الى اديار القدس وبيت لحم والناصرة واماكن غيرها ان يقدموا الصلوات على نية سموك » .

وللقنصل كتاب آخر يحمل تاريخ ٢ كانون الاول ١٦٣١ وجهه الى ديورجو ، كاتب اسرار الغراندوقة ، افتتحه بالشكوى على كورتيزي واشار الى بالة الحرير التي اهداها الامير الى الكردينال ثم تخلص الى التوصية بالحاقلاني « ليتحقق قول الامير له انه يرسله الى بلاد يلقى فيها العطف كله . فان عامله اصحاب السمو بالحسنى كانوا عند ثقة الامير بهم » . ورجاه ان ينبه على ليونشيني « ان لا يعرض الحرير على احد او يتصرف به ، الا بحضور الحاقلاني . دفعاً للشكوك التي قد تحوم حوله » .

واخبره ان جبرائيل صانع المتفجرات[1] عاد الى بلاده بعد ان اقام في حيفا ، معاملة طرابيه عدو فخر الدين ، دون ان يقصد الى طرابلس . وكان يذيع علناً سرّ مجيئه الى فخر الدين . فأبى الامير استدعاءه ومعاينة النيران الاصطناعية والمفرقعات التي صنعها ، واكتفى بمنحه مرتين ستين قرشاً .

واخبره ايضاً انه امر كورتيزي ان يشحن حرير فخر الدين في المركب الكبير لانه اضمن ، فلم يأتمر وكدّس اكثره في عنبر المركب الصغير خلافاً لتعليمات الامير . ويرجوه ان يوعز الى الرعايا التسكانيين بطاعته ، والا تعذرت عليه خدمة المصالح التسكانية والقيام بواجباته[2] .

رابعاً : شكوى القنصل الفرنسوي . لم يرق القنصل الفرنسوي في صيدا[3] تعيين قنصل يرجع اليه الرعايا التسكانيون ، بعد ان كان مرجعهم الرسمي . فكتب في

---

(١) Gabriello Petardiero

(٢) ف ٣٧٢ ـ ٣٧٤

(٣) كان يدعى تاركيز Tarquez . وهو الذي نال من فخر الدين في السنة ١٦٢٠ للآباء الفرنسيسكان بيت العذراء في الناصرة ر ص ٤١ و٤٢ ف ٤٢

٢٧ كانون الاول ١٦٣١ الى الكردينال ريشيليو، وزير لويس الثالث عشر، ما تعريبه عن الفرنسوية :

« مع اني لما اقلعتُ من مرسيليا قاصداً الى الشرق لم اتلقَّ من جلالته امراً بتعاطي السياسة في هذه الانحاء، رأيت من واجبي اطلاع سيادتك على بعض حوادث وقفتُ عليها، اعتقاداً مني انك ترتاح الى معرفتها، وخوفاً من التقصير في واجبي اذا كتمتُ عن سيادتك ما يجري بين الامير فخر الدين وبعض الامراء المسيحيين من الامور التي قد تخالف افكار جلالته .

« فابدي لسيادتك اني لما وجدتُ هذا الامير يميل الى الغراندوق ويبادله بارتياح هدايا ثمينة، ويتقبل منه الذخائر الحربية، خطر لي ان استفيد مما لي عليه من الدالة، فاخذت ابيّن له اهمية صداقة جلالته، وما يملكه من القوات الحربية . وتدرجت الى القول : اذا كان بحاجة الى مساعدة ما فجلالة مليكنا يرتاح كثيراً الى فرصة يثبت له فيها رغبته في خدمته . بيد ان الامير كان يجيبني « انه على استعداد لخدمة جلالته » . ولا يزيد على ذلك . الامر الذي ادهشني لانه كان قد كلفني مراراً، في اوقات حرجة مرت به، السعي له بمساعدة جلالته .

« واكد لي بعضهم ان الغراندوق لا يتعاطى هذه الامور وحده، بل ان ملك اسبانيا والامبراطور[1] وقداسة البابا يؤيدونه في هذه السياسة .

« ولعل الامير، بعد ان سمع بالاضطرابات، التي تتخبط فيها فرنسا، ورأى اتحاد هؤلاء، مال الى العمل معهم، متخذاً اقرب طريق يصل بها الى هدفه . وقد اندفع فيها الاندفاع كله، لانه اذن لهم بتشييد قلعة في صور، على مسافة نصف يوم من صيدا . وقيل ان القلعة تبنى في حيفا، على حدود الامير طرابيه، قريباً من جبل الكرمل، وان العمل ينتهي منها في اذار او نيسان القادمين .

« وقد عين الغراندوق في هذه المدينة بالاتفاق مع الامير، قنصلًا للفلورنتيين . فاخذ يتقاضى رسوم المراكب القادمة من ليفورنو للمتاجرة في هذه الانحاء . الامر الذي جاء مخالفاً لبنود المعاهدة بين جلالة مليكنا والسلطان . ويعود بالخسارة على موارد

---

(١) هذه اول اشارة الى علاقة الامير بامبراطور النمسا

القنصلية، ويحرمها حقوقها . واني اترك لفطنة سيادتك ملافاة هذا الضرر وعمل ما تراه موافقاً [(١)] » .

٢ - **نشاط الامير** - قلنا ان تقارير القنصل التسكاني في صيدا حفظت لنا معلومات ثمينة عن نشاط الامير الاقتصادي والعمراني والحربي في السنتين ١٦٣١ و١٦٣٢ وجزء من السنة ١٦٣٣ . ويزيد في قيمة هذه الوثائق انها الوحيدة العائدة الى المدة المذكورة . لان ترجمة الخالدي وقفت عند السنة ١٦٢٤، التي توفي فيها . ولم يبقَ لنا سوى بعض فقرات واردة في تاريخ الدويهي، نشرناها لك [(٢)]، فجاءت شحيحة مقتضبة . ولا تنسَ ان الدويهي ليس معاصراً للامير كالقنصل .

اولاً : الحرير في ليفورنو . لما وصل المركبان الى ليڤورنو شكى الحاقلاني ربانهما انه اساء معاملته، وشكاه ليونشيني انه رمى بالات الحرير في خندق المحجر الصحي . وقصد الحاقلاني الى فلورنسا وقابل الغراندوقة واطلعها على مهمته وعاد في ١٦ كانون الاول ١٦٣١ الى ليڤورنو مزوداً باوامرها . فدخل الجمرك ووجد الحرير بحالة مرضية . وحضر وزنه فاذا به يبلغ ١٣٦٤٥ ليبرة . وأودع المخزنجي الحرير مخزناً خاصاً داخل الجمرك تسلم الحاقلاني مفتاحه، بعد ان اخذ نماذج من كل بالة ليعرضها على التجار واخرج البالة الخاصة بالكردينال مديشي، ليقدمها له . وحامت الظنون حول ليونشيني، لانه حاول ايداع الحرير مخزناً خارج الجمرك خاصاً باحد اصدقائه، ثم سعى في بيعه خفية عن الحاقلاني باسعار لم يجدها هذا موافقة، فكف يده عن التعاطي بأمر الحرير، مما حمله على تسويد صفحة الحاقلاني، مدّعياً انه يماطل في البيع رغبة في العيش طويلاً على نفقة الامير .

واستاء البلاط من سلوك مندوبيه التجاريين فاحجم عن المتاجرة مع لبنان، بالرغم من عطف الامير على مصالحه ومصالح رعاياه . وزاد الطين بلة ورود تقرير من القنصل التسكاني في صيدا مؤرخ في ١٣ شباط ١٦٣٢، يصف فيه جهل الطبيب نالدي مهنته

---

(١) ف ٣٧٢-٣٧٥

(٢) ر ص ١٢٩ و١٣٠

وتهربه من ممارستها، واقتصاره على تطبيب الامير علي واسرته بالسحر والخزعبلات واستدعاء الارواح، حتى انه استقدم لهذا الغرض وسيطاً من تسكانا

واستشهد القنصل بما خبره بنفسه من جهل الطبيب. فقد استدعاه ليعالج الماً عصبياً في كتفه فوضع حراقة مدخنة فتحت في ذراعه جرحاً بليغاً اذاقه آلاماً لا تطاق . حتى اضطر الى الاستنجاد بطبيبين يهوديين يمارسان في صيدا . فدهشا من طريقة هذا العلاج ولبثا اسبوعاً كاملاً يجاهدان في تسكين آلامه وتجفيف جرحه . وختم القنصل بقوله « لو ارتكب الطبيب نالدي خطأً مماثلاً لهذا في احد اعضاء اسرة الامير لسوّد صفحة البلاط التسكاني، خاصة الغراندوقة، لاختيارها طبيباً جاهلاً وضع الامير فيه ثقته كلها لثقته بسموها ».

واردف بالخبر التالي « ارسل السلطان فرمان باشوية طرابلس باسم فخر الدين، فتنازل عنه لولده الامير حسين، ثالث انجاله . لان جد هذا الولد من امه كان صاحب طرابلس[1] . وهو يحث الآن التجار على الانتقال الى طرابلس لينهض بتجارتها . وقد جاهر بقوله : انا خربتها وساعمرها انا . وفخر الدين الان قد اصبح اميراً عظيماً . بل هو اقدر امير في الامبراطورية العثمانية » .

« وبلغني انه يعد العدة لمحاربة ابن فروخ والامير بشير ؛ وكلا الاثنين من عرب البدو ومن اشدّهم بأساً . وهو مقيم في بيروت، وولده الامير علي في صفد . وكل منهما قد جند ستة آلاف مقاتل .

« نزل دمشق خمسة عشر الفاً من الانكشارية والصباحيين، التابعين للجيش العثماني، العائد من بلاد العجم . فكلفوا المدينة ثلاثمائة الف قرش في مدة لا تزيد عن شهر ونصف شهر . ولما ضاق الاهالي ذرعاً قاموا عليهم وطردوهم من المدينة[2] ».

ثانياً : القمح والاجواخ . « اسعار القمح واقفة على ٢٥ قرشاً الغرارة في عكا ، وبين ثمانية عشر وعشرين قرشاً في صيدا . بيد انك لا تجد مشترياً بهذه الاسعار ، لان المساحة المزروعة قمحاً هذه السنة ضعف ما كانت عليه السنة الماضية . والزرع بحالة

---

(١) رزقه من بنت الامير علي سيفا، ابن اخي يوسف باشا، كما سبق القول

(٢) هذا يدل على حكمة الامير في منعهم من نزول بلاده . ر ص ٣٣

جيدة، والجو ملائم له مما يبشر باذن الله بحصول وافر .

« سابعث اليك في البريد القادم بلائحة وافية للبضائع التسكانية التي تلقى رواجاً في هذه الاسواق، واللبنانية التي يحسن تصديرها الى تسكانا . حتى اذا تكرمت سمو الغراندوقة فاقرضتني مبلغاً من المال لتعاطي هذه التجارة، خصصتها بنصف الارباح واصابني النصف الاخر . لان قعودي هنا بلا عمل وبالراتب الضئيل الذي عينته لي لا يوافقني طويلاً . »[1]

وفي ٣ نيسان ١٦٣٢ كتب القنصل الى ديورجو يخبره عن زراعة القمح واسعاره، ويزيد على هذا الخبر ما يلي :

« الامير فخر الدين يقيم الان في صيدا لوفاة كنته . وقد بكتها المدينة كلها لما تحلت به من المزايا . ويندبها الامير علناً لشدة حزنه عليها[2] .

« فرغت الاسواق هنا من الجوخ والمخمل وجميع الاقمشة الحريرية . فانك لا تجد فيها من هذه الاصناف ذراعاً واحداً معروضاً للبيع . والطلبات من دمشق عليها ترد الى هنا يومياً، ولا سبيل الى تلبيتها . وقد يباع الذراع من الاقمشة القرمزية بخمسة عشر قرشاً . والسوق بحاجة الى بقية الاصناف . وكانت الغلايين الواردة من البندقية الى قبرس تنزل شيئاً من بضائعها الى هذه الاسواق . فجلبت هذه السنة الى حلب ٣٥٠ ثوباً من الجوخ وزهاء الف ذراع من بقية الاقمشة، بدلاً من ستة الى سبعة آلاف ثوب من الجوخ، ومن ثمانين الى تسعين الفاً من بقية الاقمشة ، تعودت حملها سنوياً الى هذه المدينة .

ثالثاً : الاماكن المقدسة ومعارك عجلون . « نال الروم من الاتراك بقوة المال مفاتيح المذود المقدس، والارمن ثلاث قناطر من كنيسة القبر المقدس . فاضطر الآباء الفرنسيسكان ان يستقرضوا بالفائدة من ١٦ الى ٢٠ الف قرش ليتخلصوا من هذا الاضطهاد . ولما ضاقت بهم الحيلة هرب الاب المحافظ ونائبه، وارسلوا الى الاستانة يستنجدون ، لعلهم

---

(١) ف ٣٧٦ ـ ٣٨٢

(٢) هي جهان بنت الامير علي شهاب، صاحب وادي التيم . زفت الى الامير علي معن في السنة ١٦١٦ (خ ٤٦)

يتّقوا هـذه الشدائد . مدّ الرب اليهم يد المعونة . لان هؤلاء الاراطقة متى دخلوا مكاناً لا يخرجون منه . ولم يبلغوا قط الشأن الذي بلغوه الآن .

« اعلن فخر الدين الحرب على الامراء طرابيه وفروخ وقنصوه[١] في نواحي عجلون . وهو يستعمل الآن البارود الذي اهداه الغراندوق اليه، ولولاه لضاق ذرعاً . وتساوي الآن ليبرة البارود اربعة غروش، والاسواق خالية من هذا الصنف . وحشد الامير حتى الان ثلاثين الفاً من حملة البنادق، وجه قسماً منهم الى عجلون والآخر الى حيفا . وهو بانتظار غيرهم من جهات جبال انطاكية . وبلاد الامير الآن قائمة قاعدة لاجل هذه الحرب، وجميع الرجال تحت السلاح . اما هو فباقٍ هنا حتى الان » .

رابعاً : معارك سوريه . ولهذا الكتاب المؤرخ في ٢٣ نيسان ١٦٣١ ملحق ضمنه القنصل احدث الاخبار التي تلقاها عن نشاط الامير الحربي قال :

« اما ما خص الحوادث فاقول : خرج الامير فخر الدين من هنا في اواخر كانون الاول الماضي قاصداً الى قلعة الفرنجي من معاملة طرابلس ، بين حدود ولايتي حلب ودمشق ، ليقف في وجه الانكشارية والصباحيين العائدين من بلاد العجم . وكان في نيتهم قضاء فصل الشتاء هنا ، الامر الذي لم يرضاه الامير . وقد تصادم معهم ، وقتل منهم[٢] . ولما شاهد قوادهم هذا طلبوا من الامير ثلاثين الف غرش ليذهبوا في سبيلهم . وبعد أن قبضوها اتجه قسم منهم الى حلب والآخر الى دمشق، حيث الحقوا بالاهلين خسائر باهظة . لان عشرة الاف منهم استقاموا في دمشق شهرين كلفوها زهاء ثلاثمائة الف غرش . واكثر تجارها هربوا وجاءوا الى صيدا .

« بينما كان الامير تحت قلعة الفرنجي استدعى مصطفى اغا نائبه في طرابلس ، ليقف مع رجاله في وجه الانكشارية والصباحيين . ولما قرب طلبه للحضور بين يديه لامر خطير، فجاء حالاً . فقبض عليه مع ولده وامر بخنقهما . والمذكور حكم طرابلس وبلغ من الحول والثروة مبلغاً لم يعد بعده يعبأ بالامير . وبعد مصرعه وضع الامير يده على جميع مقتنياته . فوجد في اسطبله ستين جواداً غالية الاثمان، وفي منزله اربعين عبداً

(١) حمدان قنصوه (ز ١٣٦)

(٢) ر ص ٣٢ و ٣٣

بين اسود وابيض ، وعشرين جارية بين سوداء وبيضاء ؛ وكمية وافرة من الاثواب ، واكثر من مائتي الف غرش نقداً . وقتل زهاء عشرة من اتباعه ، الاكثر تقرباً منه ، وسلبهم اموالهم [١] .

« ولما تمّ له ذلك قصد الى جهة انطاكية ، وصعد بغتة الى جبال صهيون ، حيث قبيلة باسلة عجز السلطان عن اخضاعها . فما ادّت ابداً المال الاميري ولا خضعت لحاكم . بل كانت تتولى امر نفسها بنفسها متمشية على السنن الطبيعية . فحاصر الامير القلعة وواصل الزحف حتى حضر بين يديه جميع مقدمي القبيلة وقدموا له الطاعة والمال . فاحتل القلعة وعين فيها نفراً من سكانه وولى عليهم احد قواده [٢] .

« ووضع يده ايضاً على قلعة قريبة من حلب تُدعى المرقب، من اعمال حمص، تبعد عنها اربعة ايام .

« ولما كان الامير علي في صفد حضرت اليه قبائل المُجر [٣] . وهم نازلون سهولاً واسعة، فيها اربع قلاع سلموها للامير من تلقاء انفسهم ودخلوا في طاعته . ومن هذا المكان ترد الى دمشق كل الموادّ الغذائية، ولولاها لوقعت في ضيق .

« وفي منطقة العلويين اخذ قلعة مسيلقيه [٤] المنتصبة على جبل عالٍ خصب جداً .

« أصيب اولاد فخر الدين الاربعة بداء الجدري . فعادهم الطبيبان نالدي ومرلينو، فشفوا .

« يحارب الان فخر الدين الامير قنصوه واولاد الامير بشير، وهم عربان نازلون جهات عجلون . ويقيم الامير علي قريباً من صفد لتموين الجيش . وقُلد الامير يونس، اخو الامير فخر الدين، قيادة الجيش . وفي اول مصادمة جندل الفين وخمسمائة من العربان ، فانهزم قوادهم .

---

(١) يقول الاب روجيه ان مصطفى المذكور طغى وبغى وعقد النية على العصيان . وقال ماريتي « إنه تآمر والوزير ريبز على ان يقضي الجيش العثماني الشتاء في بلاد الامير »، ليتسنى له خلع طاعته والاستقلال بالولاية .

(٢) راجع الدويهي ز ١٣٦ ور ص ١٣١

(٣) Mogor لعله يعني المشارقة (خ ٣٦٣) . راجع اسم المجرّ في خ ٩٦ و٩٧ و١٨٢

(٤) في الاصل Salemo. Meselcie ولعله يعني المسقيه بين قلعة الحصن وصافيتا (خ ٩٦ و٩٧ و١٤٨ و١٧٩)

« وفي الثامن من اذار وصل الامير فخر الدين الى صيدا قادماً من بيروت، حيث كان يبني سبيلاً، تخليداً لذكرى السلطانة ست جهان الدرزية[١]، التي توفيت اخيراً. كانت زوجة الامير علي ومحبوبة الشعب لمزاياها الحميدة. وقيل انها كانت ماهرة بحركات النجوم والسحر.

« من اخبار العجم ان ملكها مات وان الطاعون متفشٍ فيها.

« من كان عنده اقمشة باعها لهؤلاء الجنود، المارين من هنا. فهم يطلبونها لحاجتهم الى اللبس[٢] ».

٣ ـ **الصادرات والواردات** ـ كان القنصل فرنسيس دا ڤراتسانو خبيراً في امور الشرق السياسية والتجارية. قضى فيه، على ما يلوح من كلامه، شطراً من حياته بين الاستانة ولبنان. ولما كان بوظيفته مولجاً تنمية العلاقات التجارية بين لبنان وتسكانا، وراغباً في الاشراف بنفسه عليها ليفيد ويستفيد، وغير راضٍ عن راتبه الضئيل، وعن سلوك مندوبي البلاط التسكاني التجاريين، خطر له ان يبين للغراندوقة الارباح الطيبة التي يجنيها المرء اذا احسن التصرف والمعاملات التجارية، وكان لديه رأسمال كافٍ؛ فرتب لائحة طويلة بالمنتوجات اللبنانية، التي تلقى الرواج في بلاده، والمصنوعات التسكانية التي يحسن تصديرها الى لبنان، وبعث بهذه اللائحة الى امين خزنتها، ووعده بقسم من الارباح التي يصيبها، لو اقنع سيدته بان تؤمنه على رأسمال يتعاطى به هذه التجارة.

اولاً : خطة المشروع. فكتب اليه في ٣ نيسان ١٦٣٢ يشير عليه ان يحمل الغراندوقة على ضرب كمية من نقود ثلث الغرش، كالتي ارسلتها اخيراً مع مندوبها ميتشيري، وان تعهد اليه بتصريفها في اسكلة صيدا. وهو يعاهدها على تصريف زهاء مئة الف قطعة منها سنوياً لدى التجار الفرنسويين القاصدين الى هذه الاسكلة؛ لانهم

---

(١) في الاصل Selti Gubane بدلاً من Setti Guhane بنت الامير علي شهاب. فهي مسلمة لا درزية.

(٢) ف ٣٨٢ ـ ٣٨٨

يفضلون شراءها في صيدا على استجلابها من لورينا الى ليڤورنو . فتصيب منها ارباحاً لا تقل عن ٢٥٪، تخصه بحصة منها .

وكتب له بالتاريخ عينه كتاباً طواه على لائحة بالمنتوجات اللبنانية والتسكانية التي تروج في البلدين . وسأله ان يقنع مولاته بان تشحن الى صيدا مقداراً من هذه البضائع عيّنه في اللائحة نفسها، مع كمية من النقود؛ وهو يعاهدها ان يشحن المراكب التي تحملها اليه بما يعادلها من المنتوجات اللبنانية والسورية . واذا خافت سموها من اخطار البحار فلتؤمّن عليها .

ثم يسأله عن اسعار الرماد المستعمل لصنع الاقداح والاصناف البلّورية، والصابون، حيث يستعاض به عن نترات السودا، ويُفضَّل عليه . ففي وسعه تصريف مقادير كبيرة من هذا الرماد لدى تجار الزجاج والصابون في پيزا وفلورنسا وجنوڤا . فاذا تمكن من بيع كل الف كيلو، واردة الى ليڤورنو، بخمسة وعشرين سكوتاً شحن اليه من صيدا الكميات التي يطلبها . ولعلّ فرنسيس دردوڤين[1]، تاجر الاقداح في البندقية، يبتاع من هذا الرماد ثلاثين او اربعين قنطاراً في السنة . وقد يصدّر اليه الف قنطار، شرط ان يقدم نصف الثمن سلفاً، ويبعث اليه ببقية المبلغ ما يعادله من الاصناف الزجاجية، المذكورة في اللائحة، طبقاً للاسعار المدوّنة فيها .

ثانياً : الرأسمال : جميع الاصناف الواردة في اللائحة تربح من ثلاثين الى اربعين في المئة . وجميع انواع الجوخ والاقمشة المذكورة فيها لاقية باذن الله رواجاً حسناً في الاسواق اللبنانية . وقد اقتصر في بيان الاقمشة الحريرية على كمية قليلة خوفاً من ان تتوهم سموها من عظم الرأسمال، البالغ ٩١٩٤ سكوتاً . بيد ان ٧٢٢٩ منه تؤخذ بالدين حتى عودة المراكب . فلا يخرج من خزنة سموها نقداً سوى ١٧٢٥ سكوتاً، لا غير. فاذا شاءت ان ترفق هذه البضائع بعشرة آلاف سكوت من نقود ثلث الغرش بلغت ارباح هذه الصفقة ٢٥٠٠ سكوت، تسد قسماً من الحسنات، التي تجود بها سموها سنوياً على الفقراء . وختم بقوله « اني واثق ان سموها، اذا اقدمت على هذه التجارة، اصابت ارباحاً شجعتها على مضاعفة الرأسمال في الارسالية التالية .

---

(١) Dardovin

«لم تجلب الغلايين البندقية، الواصلة اخيراً الى سوريه، من الاقمشة غير ٣٥٠ ثوباً، ومن الجوائز سوى عشرة آلاف ذراع، ومن النقود عشرة آلاف ريال فقط، وثلاثة الاف من القطع الصغيرة، والف صندوق من بضائع مختلفة . بينما كانت تجلب في السنين الماضية من ستة الى سبعة الاف ثوب من الاجواخ، ومن ثمانين الى تسعين الف ذراع من الاقمشة الحريرية، ومئات الالوف من النقود . وقد ارتفعت الان اسعار الاجواخ وكثر عليها الطلب . ولو كان عندي منها اربعة او خمسة صناديق لصرّفتها بكاملها وبعثت بدلاً منها قطناً مغزولاً، او غيره من البضائع الوطنية .

«زُرعت هنا هذه السنة مساحات واسعة قمحاً، والجو ملائم، والشيوخ يبشرون بمحصول وافر . ولو كان لدي رأسمال لفزت بارباح جيدة . فقد بيعت ليبرة القطن باقل من نحاستين[1] . وفي السوق بضائع كثيرة تعرض باسعار بخسة، اذا لم يكن في الميناء مراكب تشتريها . واذا حضرت المراكب زادت ٢٥ و٣٠ في المئة، واحيـاناً المئة مئة . كما جرى اخيراً في القطن . فقد كانت الاحدى والعشرون ليبرة منه تُعرض بسعر سكوت ونصف السكوت . والان تساوي سكوتاً وريالاً ونصف الريال . فلو كان بيدي مال نلتُ ارباحاً جيدة بلا مخاطرة . والفرص هنا موفورة لمن عنده مال . نعم ان في هذه الموانئ تجاراً فرنسويين . بيد انك لا تجد مع احدهم نحاسة واحدة . لان جميعهم سماسرة[2]، وعليهم ان يعيدوا المبالغ التي يتلقونها من بلادهم مع المراكب التي جلبتها . لان ليس لديهم غيرها . ومتى عادت المراكب فرغت خزائنهم . حتى اذا رغبوا في شراء بعض البضاعة اضطروا الى الاستدانة . والفائدة هنا فاحشة قد تستغرق الرأسمال .

ثالثاً : نفقات القنصلية . ولولا الامل بان تزودني سموها ببعض الرأسمال لركبني الهمّ . فانا قابع هنا بلا عمـل ولا ربح البتة . ويستحيل علي القيام بنفقات القنصلية براتب الغرشين والنصف الغرش المعين لي عن كل يوم . لاني انفق عـلى كاهن يخدم معبد القنصلية، محافظة على مكانة اصحاب السمو . ويطرق داري يومياً عـدد من اعيان البلاد، فعليّ ان اقدم لكل منهم بعض الضيافة لاسيا الدخان، الذي ابتاع الليبرة منه

---

(١) في الاصل due grazie

(٢) قومسيونجية

بغرش . وعلي ايضاً ان اقدم الطعام والخمر لغيرهم . ولما كانوا من كبار الدولة ومن بطانة الامير لا يسعني ان ابخل عليهم . لاسيما انهم يقولون : نحن الآن في دار سمو الغراندوقة . ولا بد لي من السير على هذا المنهاج محافظة على كرامتي . بيد انه لا يسعني مواصلة هذه النفقات مهما سعيتُ الى التوفير . ناهيك عن اضطراري الى الظهور بملابس لائقة، وايداع خزانتي اكثر من ثوب، كي لا ينتبهوا الى ضيق يدي . وهم يلبسون في فصل الشتاء الفرو، الذي يكلف هنا اكثر من بلادنا . فيذوب الراتب المعين لي وراء هذه النفقات . واني اسرّ اليك بامري، مؤكداً لك ان كرامتي وكرامة اسيادي اصحاب السمو ما زالت في ارتفاع يوماً عن يوم» .

ثم يخبره عن حملة الامير على عرب فلسطين ويردف بقوله «تُبذل هنا مساعٍ جدّية للصلح مع هؤلاء الامراء العرب . وسيتم الصلح، بإذن الله، على قول مسيحي يُدعى الشيخ ابو نادر، المقرّب جداً من الامير فخر الدين . وهنا ثمانية آلاف من حملة البنادق قد لا يذهبون الى ميدان الحرب . فان تم الصلح عادوا الى اماكنهم» .

رابعاً : لائحة البضائع . ذكر القنصل بين البضائع التي يحسن تصديرها من صيدا الى ايطاليا : الكتان والقطن المغزول والغير مغزول . والزبيب والعفص[1] والحرير الابيض والاصفر والخشن، اي مسلوبة الحرير . والصوف القبرسي والزاج الدمشقي والفق الحريري والنصف الحريري . والأرزّ والقمح والكتان الازرق والابيض والخشن . والصابون والرماد والصمغ العربي .

وبين البضائع التي يحسن تصديرها من تسكانا الى صيدا : خيوط القصب الذهبية والفضية . والاجواخ والمخمل على اختلاف انواعها، الخارجة من مصانع البندقية وبراتو وامبولي[2] . والحرائر . وورق الكتابة على انواعه وقياساته بين خشن وناعم . والاقداح البلورية والزجاجية من ذوات القواعد . وعيون النوافذ الزجاجية والبلورية على مختلف الوانهـا، من صفراء وحمراء وزرقاء . والمرايا . والاباريق . والشماعدين والصحون القيشاني والفخار . والكاسات والقوارب . والبرّادات . والمقالي والقدور . وحب

(١) للحبر والالوان

(٢) Prato. Empoli

المرجان المصقول للمسابح . وانواع العطارات من قرنفل وجنزبيل وجوز الطيب وفلفل . وازرار النحاس المذهبة . وشرائط الحرير المذهبة والفضية . وقضبان الفولاذ . والمسامير على مختلف قياساتها . وحلقات الشيّ . والمقصات . وامواس الحلاقة والسكاكين . ومطافئ الشمع . والاجراس الصغيرة والقبعات الحمراء . والاسبذاج . والحق هذه اللائحة بقائمة الوان الاجواخ والاقمشة وقياساتها .

وكتب ايضاً في ٢٢ ايار ١٦٣٢ الى ديورجو يخبره عن اقبال موسم القمح وكثرة المخزون من القديم، الذي يكفي لشحن مراكب عديدة، واضطرار محتكريه الى عرضه بسعر ١٨ غرشاً الغرارة، بعد ان باعوه باربعين . وهيهات ان يجدوا مشترياً بهذا السعر لانه ينتظر هبوطه الى ١٢ غرشاً . واستطرد الى الكلام عن فراغ الاسواق من الاقمشة وكثرة الطلب عليها . وختم بحديث عن السلام، الذي خيّم على البلاد بعد انتصار الامير علي على الامير رشيد، والغنائم الوافرة التي اغتنمها . وعن الامير فخر الدين، الذي يتمتع بصحة تامة ويسأله دائماً عن الحرير الذي ارسله وعن القارب المسلّح الذي اوصى عليه، فيعتذر له بانقطاع الرسائل عنه . وقد استدعاه ليركّب له خيمة السرير، التي اهدتها الغراندوقة اليه، فسرّ لرؤيتها عندما تم تركيبها[١] .

خامساً : عودة القنصل التسكاني . ولما قطع القنصل الامل من الحصول على رأسمال يربح من ورائه ما يقوم بتحسين حاله، وانقطع ورود المراكب التسكانية الى لبنان لسوء تصرف المندوبين التجاريين، عزم على ترك منصبه . ناهيك ان الغراندوقة لم تكن راضية عنه الرضى كله لتحيّزه الى الرهبان الفرنسيسكان الايطاليين ونفوره الظاهر من الكبوشيين، الذين رفعوا اليها شكواهم منه[٢] . فضلاً عن معاكسة الفرنسويين له للاسباب المار ذكرها[٣] . وقبل سفره زوّده الامير فخر الدين بالكتاب الآتي نصه[٤] .

---

(١) ف ٣٨٩ - ٤٠٠

(٢) ف ٣٦٢

(٣) ر ص ٣٢٠

(٤) نشرناه في مجلتنا البطريركية ٧ : ٣٩٠

الي حضرة السيد المعظم سنيور قران دوكا وسنيورا مداما حفظهم الله تعالي وان سالتم عنا وعن اولادنا لله الحمد طيبين بخير وعافية واولادنا بيبوسو ايديكم ورجلكم وداعيين لحضرتكم وبعده نعلم حضرتكم ان ارسلتو الي اسكلت صيدا قنصل فرنسسكو وقعد هل مده ما قشعنا الا شي المليح وصدق الكلمه ولما هده السنه ما جا مراكب ولا دخل له قنصليه فطلب التوجه الي عند حضرتكم مرادنا يكون حسن نضركم عليه كرامت مجيه الي عندنا وتوجهه الي عند حضرتكم كتب في شهر ربيع الاول من شهور سنة اثنين واربعين والف محمدية[1] باقي والدعا خادمكم

[الختم] فخر الدين

مفخر آل معن معن[2]

فخر الدين م

٤ ـ **الاسرى والاجواخ** ـ اتم الحاقلاني مهمته، بالرغم من الصعوبات والمعاكسات، التي اعترضته . فباع الحرير بسعر جيد واودع قسماً من ثمنه مصرف الرحمة واشترى بالقسم الآخر عدداً من الاسرى باعهم في المغرب . وسافر الى الامير حاملاً اليه وصلاً بسندات المصرف، فاعاده لتحصيل ثمن الاسرى وشراء كمية من الاجواخ والاقمشة . واليك بعض التفصيل في هذه المهمة. كلفه الامير قضاءها قبيل الحملة العثمانية، التي اوقفت اعماله وقطعت خيط حياته .

اولاً : سندات المصرف . حاول ليونشيني ان يستأثر ببيع الحرير بمبلغ ٢٢٢٠٩ سكوتات[3] . فمنعه الحاقلاني وكف يده عن التعاطي بامره . فاستاء منه واخذ يشنع في

---

(١) يبدأ في ١٦ ايلول ١٦٣٢
(٢) ف ٤٠٠ ـ ٤٠٢
(٣) ف ٣٨٤

حقه ويكيد له المكايد، بالاتفاق مع القنصل دا ڤراتسانو . وتوصل الخاقلاني الى بيع الحرير بمبلغ ٢٨٠٠٠ سكوت صافية بعض حسم جميع النفقات[١] . وفي ٢٨ ايار ١٦٣٢ اشترى للامير من مصرف الرحمة بفلورنسا مائتين وسبعة وعشرين سنداً من سنداته، بلغ ثمنها ٢٢٧،٦٦ سكوتاً، باعتبار مئة سكوت لكل سند . وركب الى صيدا فسلم وصلها للامير . ثم عاد بأمره الى تسكانا ببعض البضائع اللبنانية ليشتري له كمية من الاجواخ والاقمشة، التي كانت الاسواق بحاجة اليها، كما سبق لنا شرحه . وقد حمّله الامير الى الغراندوق وجدّته الغراندوقة، الكتاب الآتي نصه[٢]» .

الي حضرة السنيور القرندوكا والسنيوره مداما حفظهم الله تعالي ان اسالتم عنا وعن اولادنا الجميع بخير من الله وداعيين لكم ان الله يعطيكم مرادكم والقسيس ابراهيم الموراني وصل لعندنا وهو داعي شاكر من احسانكم الله تعالي يجعلكم دايمين وتركرة البنك بالدراهم حق الحرير وصلت الينا والمبلغ الدي باقي علي يدكم حق اليسرا ما وصل الينا فيكون نضركم علي القسيس ابراهيم في خلاص المبلغ ويشترى لنا به جوخ وقماش علي يد احد من قبلكم ويجيبوا معه واما المبلغ الدي في البنك وصل لنا تمسكه يضل باقي لنا في البنك هو وفايدتـه في كل سنة الي زمان نعتازه نحنا واولادنا يصال اليهم بفايدته علي قدر السنين الدي بيقعد في البنك وفي كل سنة تحسبوا فايدة الدراهم وتكتبوها عندكم وتحطوها في البنك بلفايده ولا يضيع لنا شي لان خاطرنا طيّب بالله وبكم ولا تعوقوا القسيس ابراهيم يعاود لعندنا بالجوخ والقماش علي قدر الدراهم الدي اعطاها من دراهمنا ثمن اليسرا

---

(١) ف ٤٠٩

(٢) نشرناه في مجلتنا البطريركية ٧ : ٣٨٨

والدراهم الذي اعطيتوها الى البربير [١] والي معلم الجسر والى الخباز سلمناها الي قنصلكم علي يدهم وكملنا لهم علي الزمان القعدوه عندنا متلما كتبتوا لنا ما بقا لهم عندنا شي ابداً واما معلم الجسر بعد باقي عندنا ومتي ما تخلص شغله نكمل له اجرته ومنوجهه الي بلاده وخاطره فرحان ونحن واولادنا واعيالنا داعيين لكم دايماً بالخير ومرادنا ان نكون نحنا واولادنا دايمين في خاطركم علي المحبه والصداقه الذي هي مامولنا ومرادنا دايماً علي طول الايام والزمان

تحريراً في شهر ربيع الثاني سنة الف واثنين واربعون محمدية [٢]

خادمكم

فخر الدين

معن

[الختم]

مفخر آل معن

فخر الدين

١٠١١

ثانياً : المؤامرة على الحاقلاني . تواطأ ليونشيني ودا ڤراتسانو على نزع الوكالة من الحاقلاني ليحلّا مكانه في معاطاة اشغال الامير على هواهما . وكانت الغراندوقة قد كلفت ترجمة رسالة الامير الاخيرة شاباً عربياً، ولعله مغربي، تنصر حديثاً، يُدعى زنوبي، فاتفقا معه على نقلها خلاف مضمونها، فجاءت كما يلي :

« حضرة الغراندوق وحضرة السيدة المحترمة . وهبكما الله الصحة . لقد أعدنا قسيسنا ابرهيم، المكلف بيع الحرير . لانه لم يسلمنا من ثمنه درهماً واحداً بل اشترى به اسرى . الرجاء ان تنزعوا منه الدراهم، التي يحملها . فقد قضى سنتين ولم يسلمنا الدراهم ولا الاجواخ، التي اوصيناه عليها، مدعياً انه خسر في بيع الحرير . فنرغب ان تأخذوا

---

(١) barbiere اي الحلاق، يعني الطبيب . لان الحلاقين في الشرق كانوا يعالجون بالفصد والحجام وغير ذلك .

(٢) يبدأ في ١٦ تشرين الاول ١٦٣٢

منه ثمن الاسرى وتشتروا لنا به جوخاً وتعلمونا عن ثمنها، وتسلموها الى قنصلنا فرنسيس دا ڤراتسانو مع ما يتبقى من الدراهم . »

ويظهر ان هذه الترجمة ارسلت الى الغراندوق في پيزا مع النص العربي فكلف الغراندوق احد المترجمين نقلها عن الاصل، فجاءت على صحتها مخالفة لترجمة زنوبي . وعادت الغراندوقة وامرته باعادة ترجمتها، فجاءت اسوأ من الاولى :

« حضرة السيدة، حفظك المولى المبارك وصانك مع اولادك ومتعك واياهم بالصحة ومنحك مشتهى قلبك .

« اما بعد فقد اعدنا اليك ابرهيم الماروني الشقي . لانه باع الحرير واشترى به اسرى ضد خاطرنا . فانظري اين خبّأ المبلغ وخذيه منه، مع التحري عن القيمة، التي باع بها الحرير، وتلك التي اشترى بها الجوخ، الذي جلبه معه الى هنا . لانه يدعي انه باع الحرير بخسارة، بسعر يقل عن سعره هنا، مع انه يساوي هنا اكثر من المبلغ، الذي باعه به . وبناء عليه لم يسلمنا دراهم ولا ارباحاً ولم يجلب لنا معه شيئاً . فالرجاء ان تأمري بالتحري عن المبلغ الذي باع به الحرير واشترى به الجوخ، وما انفقه على الاسرى لاننا نريد ان نقف على الحقيقة . فان وجدناه كاذباً عاقبناه بصرامة . وان كنا لم نعاقبه حتى الان فمراعاة لاهله . فالتمس ان تنزعي منه حال وصوله ما يحمله من الدراهم والاغراض والبضائع التي اخذها من هنا، وكل ما تجدينه معه، وتسلميها الى ڤراتسانو قنصلنا وقنصلكم، ليشتري لنا بها جوخاً ويجلبه الينا . لاننا حصرنا ثقتنا به وحده، ونوصيكِ ان تعامليه احسن معاملة حبًّا لنا . واختم بتقبيل يديك سائلاً المولى ان يمنحك الصحة والانشراح وكل ما تشتهينه، لك ولكامل البيت الكريم » .

ثالثاً : حيرة الغراندوقة . ولم يكن الحاقلاني عالماً بما دُبّر عليه، فقدم الى الغراندوقة طلباً هذا تعريبه :

« للامير في تونس مبلغ اثني عشر الفاً، ثمن بعض الاسرى . فاراني مضطراً الى السفر حتى هذه المدينة لتخليصها . ولما لم يكن من مصلحة الامير ان استأجر مركباً لهذه الغاية، ارجو السماح لي بشراء المركب المدعو « سان كارلو » وركوبه الى هناك، فيصبح من واجبي الابتهال الى العزة الالهية لاجل سموك » .

وقد عثرنا على ملفّ رسائل تبادلها كاتبا اسرار الغراندوقة والغراندوق . الاول يوعز بمنع الحاقلاني عن شراء المركب والسفر، والثاني يجيب ان الحاقلاني حائز على ثقة الغراندوق، وقد اذن له بالسفر وبابتياع المركب، على ان يقدم نصف ثمنه سلفاً والباقي بعد عودته من تونس . اما الترجمة التي وُضعت في فلورنسا فغير صحيحة، فقد استدعى الغراندوق فجأة صباح الرابع من كانون الثاني (١٦٣٢) احد التراجمة الى غرفته الخاصة وامره بنقل الرسالة امامه عن العربية حرفياً . فجاءت مخالفة للترجمة الموضوعة في فلورنسا . فدهش سموه لهذا الامر ويريد ان يعرف الشخص، الذي اوعز الى زنوبي بوضع تلك الترجمة الكاذبة . والحاقلاني رجل مستقيم رصين ذكي الفؤاد . وهو اذ علم بان الغراندوقة راغبة ان لا يأتي امراً قبل اطلاعها عليه اجاب انه يعتبر ذلك من اكبر واجباته . بناء عليه فهو قاصد الى فلورنسا للمثول بين يديها وشرح الاسباب التي تحمله على شراء المركب والسفر الى تونس، وللفوز برضى سموها قبل الاقدام على احد هذين الامرين .

ورأت الغراندوقة ان تأخذ رأي احد مستشاريها في هذه المعضلة، فاجاب: « لما كان الامير يطلب الى سموها في كتابه الاخير ان تمدَّ الى مندوبه الحاقلاني يد المعونة لاستخلاص ثمن الاسرى، لا ارى موجباً لعرقلة اعماله، والاولى مساعدته على اتمام مهمته » .

وارتأى الحاقلاني ان يقدم للغراندوقة خلاصة حساباته فكتب اليها في اول شباط ١٦٣٣ ان ثمن الحرير بلغ ثمانية وعشرين الفاً ، صافية من كل نفقة . استقرض عليها اثني عشر الفاً من مخزنجي الجمرك لشراء خمسة وعشرين اسيراً باعها في تونس . وبعد عودته من لبنان رأى انه لم يُسدَّد من ثمن هؤلاء الاسرى سوى اثني عشر الفاً فهو مضطر ان يسافر الى تونس لتحصيل بقيته . ويختم بقوله « لما كان الامير قد اوصى سموك بمساعدتي على تصفية هذا الحساب ارجو ان تزوديني بتوصية الى نائب الملك هناك » .

ومن مسودة رسالة أُعدَّت للامير، تحمل تاريخ ايار ١٦٣٣، عرفنا ان الحاقلاني عاد من تونس ببعض البضائع . فسلمها الى وكيل الغراندوقة ليصرّفها ويبتاع بثمنها الاجواخ التي يرغب فيها الامير[1] .

---

(١) ف ٤٠٠ - ٤١٠

رابعاً : تصفية اشغال الامير . بيد ان طارقاً غير منتظر جاء بمنجله يقطع بلا رحمة ولا تمييز ما انبته الامير بجهود ثلاث واربعين سنة من الزهور الزاهية في حقول السياسة والعمران والفن . فقد تواردت الى الاستانة الشكاوى عليه بكثرة وشدة لم يعهد لها مثيل . قدمها مجاوروه وحسّاده ومناوئوه، وما كان اكثرهم . « وكان مثيروها، على قول الاب روجيه، باشا دمشق وباشا طرابلس، ومن عرب فلسطين : طرابيه وفروخ. اتهموه انه يحتقر الاسلام، ويدافع عن المسيحيين، ويطلق لهم الحرية في بناء الكنائس والاديار، ويغتصب بلاد مجاوريه، ويتآمر مع الاجانب للاستيلاء على القدس . فعقد السلطان النية على التخلص من هذا الامير، ظنًّا منه انه كلما تقوى هدد عرشه بالانهيار » . وزاد صاحب ملحق الخالدي بقوله « ان دولة حلب ارسلت على الامير شكوى الى الباب العالي عن عمارة القلعتين[1] » . فجرد السلطان مراد الرابع عليه حملة قوية برًّا وبحراً . وعين على الجيش البري احمد باشا كجك والي دمشق . وكان هذا ربيب فخر الدين، رقاه الى رتبة بلوكباشي وكلفه تحصيل الاموال من الامير علي شهاب صاحب حاصبيا . ولما اتم مهمته « حضر الى عند حضرة الامير وحاسبه على المال والخدمة . وبعد ذلك صار له زعله وتوجه الى الباب العالي خدم وصار له انعام وصار باشا[2] » .

وفي هذه الاثناء وردت الى الامير من الغراندوقة رسالة لم نقف على نصها . بيد اننا عرفنا من جوابه التالي ان الطبيب نالدي طالب ببقية راتبه، فاكد لها الامير انه سدده كاملًا على يد القنصل . ويظهر ان هذا القنصل وليونشيني، بعد ان فشلا بنزع ثقة الغراندوقة بالحاقلاني، وشيا به الى الامير نفسه، وتوصلا الى القاء الريبة منه في قلبه . فرأى فخر الدين ان يحتاط لنفسه منه ومن تقلبات الدهر التي فاجأته، فاجاب الغراندوقة بما حرفه[3] :

---

(١) خ ٢٤٤

(٢) خ ٢٤٤

(٣) نشرنا صورة هذا الكتاب الشمسية في مجلتنا البطريركية ٧ : ٧٣

الي حضرة سنيور قان دوكا وسنيورا مداما حفظهم الله تعالي مرادنا منكم تاخدوا ثمن اليسرا من ابراهيم الموراني الذي من بلادنا من جبل لبنان منخاف ان الدراهم اذا ضلوا معه في يد ابراهيم الموراني يضيعهم علينا اذا اخدتم الدراهم منه وصاروا عندكم بيطيب خاطرنا والحكيم والخباز والبنا اعطيناهم اجرتهم علي قدر ما عينتم لنا في الزمن الذي قعدوه عندنا علي قدر استحقاقهم علي يد القنصل الذي كان عندنا من جماعتكم ونحن واولادنا بخير يبوسوا يدكم ونحن اليوم في تعب قلب كثير الله يعيننا كتب نهار الثلاثا يوم عشرين في محرم سنة ثلاثة واربعين والف محمدية[١] علي صاحبها الصلاة والسلام سربتور[٢]

فخر الدين [الختم]

معن مفخر آل معن

فخر الدين

١٠١١

وخوفاً من ان يتكرر التلاعب، الذي صحب كتابه السابق، كلف الامير الاب ادريان دلا بروس[١]، رئيس الرسالة الكبوشية في لبنان وسوريه، ان يرفقه بترجمة ايطالية . ففعل، والحقه الراهب المذكور بكتاب خاص وجهه الى الغراندوقة، يعيد عليها بلسان الامير مضمون كتابه العربي، ويؤكد لها انه سدّد رواتب الخبراء جميعهم بكاملها . فان نقص منها شيء . فالذنب ليس ذنبه . ورجاها ان تأمر وزراءها ان يأخذوا من الحاقلاني ثمن الاسرى، الذين اشتراهم في تسكانا وباعهم في الجزائر وتونس . فاهتمت الغراندوقة لتصفية حساب الامير واشغاله، لاسيا بعدما عرفت ما

---

(١) ٢٨ تموز ١٦٣٣

(٢) Servitore اي خادم

(٣) P. Adrien de la Brosse

آلت اليه حالته من الاضطراب، وما حاقت به من الاخطار من جرّاء الحملة العثمانية .
وقد رأينا ان الحاقلاني كان قدم منذ ايار حسابه اليها وسلمها ما تبقى لديه من اموال الامير . ولاحظنا من حساب المصرف، الذي اودعه الحاقلاني قسماً من ثمن الحرير، ان ثمن الاسرى لم يدخل الى هذا المصرف . ولعل الغراندوق انفقه في سبيل تخليص ورثة الامير بعد مصرعه، كما سيأتي القول[1] .

---

(١) ف ٤١٢ و٤١٣

الفصل الرابع

آخرة فخر الدين وورثاؤه

١٦٣٣ ـ ١٦٥٩

١ ـ **الحملة العثمانية** . ظل الامير فخر الدين معلقاً بالدولة التسكانية خيوط آماله حتى انقطع خيطُ حياته . وقد ترددت صديقته في تلبية ندائه الاخير، لاسباب نجهلها. بيد انها لما شاهدت العاصفة قد اغرقته واغرقت آمالها بصداقته، همّت الى تخليص ورثائه، همة من يتشبث بآخر لوحة من مركب غريق . واليك تفاصيل هـذه الكارثة، نقلاً عن الوثائق الغربية، ضاربين صفحاً عمّا تركه لنا بصددها المؤرخون الوطنيون، كالدويهي والمحبي وصاحب ملحق الخالدي، مكتفين بالاشارة اليهم عند الحاجة .

اولاً : تنصر الامير . من اغرب ما حكته لنا الوثائق الغربية رواية تنصر الامير على يد الاب ادريان دلا بروس، المذكور اعلاه ؛ دوّنها سجل الرسالة الكبوشية في لبنان وسوريه . وهاك تعريب ما جاء فيها بهذا الخصوص نقلاً عن الفرنسوية :-

« في هذه السنة ١٦٣٣ اصيب فخر الدين، امير الدروز ، بمرض كاد يودي بحياته . فاستدعي له الاب ادريان دلا بروس[١] . فبغت هذا الاب لما رآه مشرفاً عـلى الموت قبل ان يتنصر، حسب الوعد الذي ناله منه منذ بدأ يحدثه عن المسيح . فتوسل الى السيد له المجد والى والدته العذراء، والى القديسين فرنسيس وانطونيوس، ان يمنحوه الشفاء . ولما عاد الى ديره كلف بقية الآباء الصلاة على هذه النية .

« وفي اليوم الثاني وجده قد تماثل للشفاء واستعاد رشده . ولما حضه عـلى اقتبال

---

(١) لمعالجته . لان الاباء الكبوشيين كانوا يمارسون الطب في الشرق حتى القرن الاخير، توصلاً الى التقرب من الشرقيين وتبشيرهم . راجع « استشهاد الاب توما الكبوشي » في مجلتنا البطريركية ٦ : ٥٩٨ وحاشية ٨

سر العماد، اجابه : ان هذا لأمر جدير بالتفكير . انما وعده، اذا وجد نفسه في اليوم التالي مستعيداً بعض قواه، ان يقوم بما يرغبه اليه .

« ولما عاوده الاب في اليوم التالي سأله اذا كان يتذكر حديث الامس . فاجابه انه يتذكره جيداً، ويميل منذ زمن بعيد الى اعتناق الدين المسيحي . وما احجم حتى الان الا خوفاً من القوات العثمانية . وما تظاهر بالاسلام الّا سياسة . وكان ينتظر سنوح الفرصة ليقتبل العماد المقدس . فبين له الاب الخطر الذي يزج نفسه فيه إن هو واصل رفض هذه النعمة . فطلب منه الامير ان يقسم على الانجيل بكتم هذا السر عن الجميع ؛ الا اذا تغيرت الاحوال تغيراً محسوساً . واخبره انه في اشتداد هذيانه وجد نفسه على هاوية الموت، وذاق آلاماً نفسية مبرحة، ترتعد الان فرائصه لمجرد ذكرها . اما الان فمستعد ان يعمل كل ما يعود لمجد الله الاعظم وخلاص نفسه . فعمده حينئذ الاب المذكور واسماه لويس ـ فرنسيس، واعفاه حيناً من الواجبات المرتبة على حديثي العهد في الاهتداء طبقاً للاذن السري، الذي ناله من الحبر الاعظم . فتلا الامير قانون الايمان ولما بلغ الى الكفر بدينه السابق صرّح له انه لم يشعر ابداً بميل الى الاسلام .

« واصبح للاب ادريان عنده المقام الاول من المحبة . ولما حضر ولده الامير علي من صفد التفت اليه وقال له : يا بني، قبِّل هذا الراهب، لانه سبب عودتي الى الحياة . فلولا عنايته لكنتُ الان في عداد الاموات . انا والدك . ولكنه بعد الله قد اصبح والدي . فان كنتَ تحبني محبة الابن لوالده، عليك ان تحبه وتحترمه مثلي . فأقبل الامير علي على الاب ادريان وقبّله بحرارة، وصادق على جميع ما قرره والده في مصلحة الرسالة، وامر خزنداره ان يمدّ الاب المذكور بكل ما يحتاج اليه .

« وكان في نية الامير فخر الدين ان يعمّد اولاده الصغار الاربعة . فسلم الاب ادريان كمية من الجواهر، وسندات المال، الذي اودعه المصرف في اوربا[١]، واعداً ان يخصص هؤلاء الاولاد بما ينوف عن المليون[٢] . وخطر له ان يكلف القرصان المالطيين ايصالهم الى بلاد النصرانية، ليتربوا على الديانة المسيحية . بيد ان ابا نادر حوّله عن هذا القصد بحججه الواهية[٣] » .

---

(١) لعل هذا سبب ضياع السندات من ورثة الامير، كما سيأتي الكلام

(٢) ر ص ٣١٧، ٣١٩

(٣) خوفاً من اغضاب الباب العالي عليه . ف ٤١٠ و ٤١١

هذا ما دوّنته السجلات الكبوشية. اما الكتّاب الذين اطلعوا على هذه المفكرة، فقد باتوا بين مصدّق ومكذب. فانكر الاب جلوبوفتش، صاحب مجموعة الوثائق الخاصة بالرسالة الفرنسيسكانية في الشرق الادنى، صدق هذه الرواية، وادلى ببراهين لا نراها قاطعة. بينما الاب روجيه، معاصر الامير وصديقه، ومن آباء الرهبانية نفسها، يقول بتنصر الامير. وكنا نميل الى الشك في هذا التنصر لولا عبارة وردت مرتين في تقريرين للمطران جرجس بن مارون، سفير الامير، واكبر امين لاسراره السياسية وعلاقاته بالمسيحيين وبالمسيحية. فقد قال في البند الرابع من شروط المعاهدة، التي عرضها الامير في السنة ١٦٣٤ على الكرسي الرسولي ودولة تسكانا، « يعِد الامير فخر الدين بان يسمح لرعاياه جميعهم باعتناق الديانة الكاثوليكية، وان يكون اول من يجاهر بنصرانيته ويعمّد اسرته[1] ». فلو لم يكن نصرانياً لقال « وان يكون اول من يتنصر مع اسرته ». وكرر المطران جرجس هذا التعبير في عريضة قدمها بهذا الصدد في الوقت عينه الى اوربانس الثامن، جاء فيها « يا لفخر عظيم يعود على قداستكم عندما يجاهر الامير بنصرانيته، ويتسابق رعاياه الى اعتناق الديانة الكاثوليكية، فترتفع راية الصليب في تلك الانحاء[3] » ...

ثانياً : حملة السنة ١٦٣٣ . بين الوثائق المديشية تقريران قُدّما الى الغراندوق فردناندو الثاني عن حملة السنة ١٦٣٣؛ كتبا بايعاز الامير، لعل صديقه يتحرك لنجدته. الاول وضع بشكل كتاب وجهه الاب ادريان الى الغراندوق هاك تعريبه :

« جئت بهذه الاسطر، نزولاً على امر سعادة الامير، لتقبيل قدمي سموكم وتقديم الرجاء بان تصدروا امركم الى بعض اخصائكم ليسحبوا من يدي ابرهيم الماروني الدراهم الناتجة عن بيع الاسرى، الذين اشتراهم في ليڤورنو وباعهم في الجزائر، والمبلغ الذي تبقى من ثمن الحرير، الذي ارسله الامير ليباع تحت انظار سموكم وعناية وزرائكم. فقد بلغه[2] ان هذه الدراهم قد تكون في خطر اذا ظلت بين يدي ابرهيم المذكور. اما اذا صارت بين يدي سموكم أمن عليها كأنها صارت بين يديه. وسيضيف هذه المنة الى سابق جميل سموكم نحوه.

(١) ف ٤٢٠ ر ص ٣٥٠

(٢) ف ٤٢٢ ور ص ٣٥٢

(٣) هذا يؤيد ما قلناه عن وشاية القنصل وليونشيني بالحاقلاني . ر ص ٣٣٤ و٣٣٧

« اما بلاده فهي الان في اشد الضيق للحرب القائمة عليه . فمن جهة دمشق عليه ان يصمد في وجه واليها، الذي انهزم امام ولده الامير علي ثلاث مرات متكبداً خسائر عظيمة في رجاله المشاة والخيالة . وهناك ايضاً باشا اورشليم وباشا غزه، والامير طرابيه، عدوه القديم[١] . وعليه ان يصدّ من جهة طرابلس واليها وابن الامير يوسف[٢] . وفي البحر اربعون غراباً واربعة غلايين[٣] . بالرغم من كل هذه الشدائد تراه ثابت الجنان، لا يداخله الخوف هذه السنة ؛ لانه احتاط لنفسه في كل هذه المناطق، فلا يسع احد هؤلاء الاعداء انزال الضرر به الان[٤] . اما ما يخبئه له الغد ففي علم الله . وقد امرني منذ يومين ان اكتب الى سموكم واقبل يديكم عنه وعن جميع اولاده، كما جاء في رسالته العربية، التي نقلتها الى الايطالية نزولاً على رغبة الغراندوقة اليه .

« اما انا فان تمكنت من خدمة سموكم لدى الامير حسبتُ ذلك نعمة وواجباً . واؤكد لسموكم ان الامير يتمنى لي كل خير، بدرجة يعجز لساني عن وصفها . كما تتحققون من كثيرين، لا سيما من قائد مركب قدم من ليفورنو الى هذه الجهات، يُدعى انجيلو دانجيلي[٥] . اختم بالدعاء للعزة الالهية لتحفظ سموكم سالمين مع ذويكم .

عن صيدا في ٢٢ آب ١٦٣٣ الراهب الوضيع وخادم سموكم في المسيح

الاخ ادريان دلا بروس الكبوشي

رئيس الرسالة في الشرق الادنى

ثالثاً : تقرير لوجيده . ولم يكتفِ الامير بهذا الكتاب، بل اوعز الى المدعو بطرس لوجيده[٦] الفرنسوي، ان يقصد الى بلاط تسكانا ويطلع الغراندوق على حاله لعله يحمله على اغاثته . فبعد ان حظي بمقابلة الغراندوق قدم اليه التقرير الاتي تعريبه عن الايطالية :

« تقرير عن حالة الامير فخر الدين، امير صيدا، قدمه بطرس لوجيده من مرسيليا .

---

(١) تسبب الامير علي في قتل ولده احمد (خ ٢٤٦) .

(٢) سيفا

(٣) بقيادة جعفر باشا (د ٢٠٤)

(٤) وزع الامير قواته على هذه المناطق « وكان ضعف راي تفريق الرجال عن بعضهم » (خ ٢٤٥)

(٥) Angelo d'Angeli وسيأتي الكلام عنه في ما يلي .

(٦) Logidet

« لما وصلت العمارة العثمانية باثنين وعشرين غراباً[١]، عقد الامير مجلس شوراه لتقرير ما يجب عمله، فقرر ان يظهر الطاعة لاوامر السلطان، ويسلم القلاع، على أمل في تسوية تقوم على تقديم مبلغ من المال[٢]. بيد ان هذا الوهم لم يعتم ان تبدّد. فبعد ان فاز قائد الاسطول بالمال، وصل باشا دمشق في البر مصحوباً بالباشوات المجاورين ووراءهم ثمانون الف محارب. فهاجموا الامير علي، الذي كان على حدود المملكة[٣]. ولما لم يكن لديه العدد الكافي للصمود امام هذه القوات، اضطر ان يلجأ الى الامير رباح، ملك العربان. وعلى أثر هذه الهزيمة اشاع مارك انطونيو دوناتي البندقي[٤]، صديق باشا دمشق، ان الامير علي قُتل، وادعى انه شاهد بأم عينه رأسه محمولاً بتظاهر الفرح الى دمشق، ليرسل منها الى الاستانة. وكتب بهذا المعنى الى التجار النصارى في صيدا وحلب وغير اماكن[٥]»

---

(١) في آب ١٦٣٣

(٢) هذه الهفوة جرّت هلاك الامير وخراب مملكته. فقد كان بوسعه ان يقاوم القوات العثمانية الغير المنظمة بجيشه المدرب احسن تدريب والمسلّح باحدث السلاح. فضلًا عن قلاعه المنيعة التي صمدت في السنة ١٦١٣ امام قوات لا تقل عن هذه، مع انها لم تكن بمناعة سنة ١٦٣٣. وكان الشتاء يقترب، فلا يسع المراكب العثمانية قضاؤه في شواطئ لبنان، لان الامير طمر موانئه ليمنع دخولها. اما قائد القوات البرية « فكان داخل عنده الوهم من ابن معن » (خ ٢٤٧). وافادنا الاب فيتالي (ص ٢٣) « ان ابا نادر، قائد جيش الامير العام، وغيره اشاروا على الامير ان يمنع بالقوة نزول القوات العثمانية الى البر او يفتك بهم ». وهذا كان ايضاً رأي عمه الشيخ ابي صافي الخازن حاكم الجبة (ف ٤٢٢)

(٣) في بانياس (د ٢٠٤)

(٤) Marc' Antonio Donati

(٥) يقول الاب روجيه، الذي كان يرافق فخر الدين كطبيب، « ان الامير انتهز فرصة تأخر العمارة العثمانية فارسل الى صفد ابنه الامير علي بأثني عشر الف مقاتل، بينهم الفا درزي والف ماروني، ليمنعوا اتصال عربان فلسطين بالجيش العثماني ». وقال الدويهي « فاخذ خبرهم الامير علي وهو في صفد فزحف برجاله من صفد وما بات الا في بانياس. ثم قام ليلاً كبس الدولة عند الصبح فظفروا به وقتلوه وقتلوا رفاقه والباقي انهزموا » (د م ١٠٤). وجاء في ملحق الخالدي « فحينما شافته الدولة دخل عندهم حساب عظيم. فصعد صعدك باشا حاكم حماه الى ضهر الجبل واشرف على عسكر ابن معن فرآهم في قلة لانهم كانوا هربوا قبل ذلك الوقت الذي صمد نحو الفا رجل لا غير. فدار الى خلف ضهورهم وحطوهم مواسطة وعلق الكون فما مرق من عسكر ابن معن الا القليل. ومن الامير علي جاه رمح في كتفه ارتمى وما احد عرفه الا واحد فنزل قطع راسه » (خ ٢٤٧). بيد

« فلما بلغ فخر الدين خبر مصرع ولده، ورأى ان احواله صائرة من سيّئ الى اسوأ، لجأ الى الجبال وتحصن في قلعة قريبة من نيحا، داخل مغارة تدعى الان قاع، على بعد زهاء عشرة اميال من الساحل. وكان معه ثمانية آلاف بين نصارى ودروز. فارسل خمسة آلاف جندي ماروني ودرزي الى قلعة بانياس وصرف جميع الانكشارية، لانه لم يكن يثق بهم، وجهّز برجاله قلاعاً كثيرة غير هذه.

« وبينما هو على هذه الحال جاءه رسول اوفده الامير علي يخبره انه حي يرزق، ومتمتع بصحة تامة. فطابت نفسه واخذ يشن غارات جريئة برجاله من موارنة ودروز على الجيش العثماني، منزلاً به خسائر جسيمة. فقد كانوا يهبطون ليلًا حتى المعسكر العثماني ويقتلون منه مقتلة عظيمة. وكانوا في النهار يظهرون على المرتفعات ويلوّحون للعدو بسيوفهم، داعينه للقتال، ومستدرجينه الى مكامن نصبوها له.

« ولما رأى باشا دمشق هذه الاحوال ارسل من يسرّ الى الامير انه اذا دفع له اربعمائة الف قرش ولّى مكانه الامير منصوراً ثاني انجاله. فارتاح الامير الى هذا الحلّ وارسل ابنه المذكور الى الباشا بهدية مؤلفة من ستين جملًا محملًا نقوداً. وبعد بضعة ايام اوفد الشيخ ابا خطار الماروني باربعمائة الف قرش. وكان هذا الشيخ على جانب كبير من حصافة الرأي والبسالة. فلما قبض الباشا المال قتل ابا خطار وارسل الامير منصوراً الى الاستانة.

« استفزّت هذه الخيانة الامير فوطد النية على المقاومة حتى النهاية. فقلد الشيخ ابا نادر، قائد جيشه العام، الدفاع عن القلاع، وقصد الى حليفه رباح ملك العربان، حيث كان ولده الامير علي، فمدّه بعدد كبير من الرجال. فاصبح كبير الامل ان يستعيد ملكه بمؤازرتهم وبواسطة رجاله من الموارنة والدروز. لا سيما ان الجيش العثماني، الذي جُمع

ان الاب روجيه خالف هاتين الروايتين بقوله « فهاجم الامير علي الجيش العثماني بشدة فقتل منه ثمانية آلاف وخسر ستة آلاف من رجاله. وفي اليوم الثاني وصلت الى الجيش التركي نجدة حلب (التي جهزها موالي باشا (المحبي ١ : ٣٦٦). ومع ان والده نهاه عن مصادمة الجيش العثماني واوصاه بمناوشته فقط، هجم الامير علي بما بقي له من الرجال بجرأة لا مثيل لها فما بقي من جيش العدو سوى ١٦٠١ ولم يبق من رجاله سوى ١٤٦ ».

وقال المحبي بعد هجوم الجيش العثماني على الامير علي « ولم يعلم احد ان الامير علي بينهم (بين اللبنانيين) ولو علموا لما ثبت احد لكبر صيته » (١ : ٣٨٦)

بكثير من العناء، اخذ الان يتفكك. لان بعضه بحاجة الى المؤن، والبعض الاخر الى الاسلحة، ولم يبقَ في البلاد اكثر من ربعه . وعاد الباشوات كل الى مكانه تاركين الجيش الدمشقي وحده . ورجع باشا دمشق نفسه الى مركز ولايته، ولم يبقِ في بلاد الامير سوى القليل من جنوده للمحافظة .

«وجميع المتحالفين على الامير باتوا قلقين لما بلغهم ان ملك العجم يقترب من حلب. والكثيرون يعتقدون ان سموك لا بدّ ان ترسل المدد الى الامير، وهم ينتظرونه بفارغ الصبر. والشائع ان الجيش العثماني قاصد هذه السنة الى بلاد الكوزاك، فلا يسعه الركوب على فخر الدين[١] .

«ولما رأى الامير نفسه في هذه الحال الحرجة أذِن لي ان اقصد الى سموك لاطلعك على امره وارجوك ان تجهّز له مركباً يسافر عليه هو واولاده، اذا دعته الضرورة، ويصطحب معه اغراضه . وكلفني ان ابلغ سموك امنيته هذه . وقياماً بواجبي رأيت ان اقدم لسموك تقريري هذا الخطي مرفقاً بشعور الاحترام وبالدعاء لله ان يمنحك السعادة والانشراح » .

بطرس لوجيده من مرسيليا[٢]

٢ ـ **سفارة المطران جرجس الرابعة** ـ ورأى الامير ان يعيد الكرة على الكرسي الرسولي وبلاط تسكانا، لعل حرج موقفه، وموقف الكثلكة في الشرق من ورائه، يحملانهما على مساعدته . ولما لم يكن لديه شخص يقوم بهذه المهمة اكثر كفاءة من المطران جرجس بن مارون الاهدني كلفه للمرة الرابعة السفر الى هذين البلاطين والسعي لعقد معاهدة بينه وبينهما .

اولاً : توصية البطريرك . وزوّد البطريرك يوحنا مخلوف السفير بكتاب ضمنه شؤوناً طائفية، ولمح فيه الى المهمة الخطيرة التي كُلفها، اي تأييد الامير لحفظ كيان الطائفة

(١) اكبر الظن ان هذا التقرير وضع في بدء السنة ١٦٣٤ ، وكان الجيش العثماني قد انسحب من لبنان في الخريف ، كما شهد الاب روجيه .

(٢) ف ٤١٤ ـ ٤١٨

والكثلكة . واليك نص الكتاب بالكرشونية، وقد طمس الحبر الممزوج بالزاج قسمه الاول فاصبحت قراءته عسرة . والكتاب موجه الى المنسنيور فوستو پولي قيّم الحبر الاعظم اوربانس الثامن .

[٦١٨] [illegible]

[illegible]

[٦١٨ ق] [illegible]

[٦١٩] [illegible]

(١) في الاصل [illegible] وقد ترجمت pianete اي بدلات القداس

واليك هذه الرسالة بالحروف العربية :

بطرس بطريك الموارنة الانطاكي الحقير[١]

ايها السيد الشريف المكرم دون فوستو پولي رئيس بيت البابا[٢] لاجل اسباب كثيرة وعلات اغصبنا بالطاعة المقدسة لاخونا المكرم جرجس مرون مطران جزيره قبروس حتى يقضي مصالحنا عند الكرسي الرسولي وعند سيادتك الشريفة المكرمة بتخلي كنيسة البتول مريم في قرية كروسيدا الكفريات في معامله قبروس[٣] الذي اخدوها الملكية بقوه مالهم وبعناية اكابر وحكام الترك . نطلب من سيادتك الشريفه المكرمه ان تقول للبابا كلمة وللكردينال بربرينا وللكردينال انطونيوس حتى يشدّوا حيلهم في تخليص هذه الكنيسة وان كان لا والّا مع الزمان بياخدوا الكنايس كلها ونشكر فضلك الجزيل الذي اهتميت وابعثت لنا ماية كاس وصلوا الينا بالكمال والتمام مع حامل الاحرف مطران المذكور اعلاه وهو بيحبك وشكر قدامنا وقدام الروسا واعيان الطايفه بالخير والجوده وهذه النقله نطلب من جزيل مروتك وفضلك تجعل نظرك عليه وتوده بكل عازاته وترده الينا مجبور الخاطر بكل قضيان مصالحه لانه مع سيادتك كاقنومنا بان تقبله وتجعل ونظرك عليه وتطلب لنا من قداسه سيدنا البابا ماية كاس لان من عازة الكاسات والبدال بعض كهنة بيبطلون خدمة القداس : وايضا مايتين اشحيم وهم في المدرسة[٤] مطبوعين مهيئين ما يعتاز اخر الا عرمهم ونفقتهم في الطريق جايه مع اي مركباً كان وتعلم سيادتك الشريفة ان لنا مصالح اوخار كبار ضروريات يقولهم بالفم حامل الاحرف مطران جزيرة قبروس[٥] . وان كان لسيادتك مصلحه

---

(١) بالسريانية

(٢) Don Fausto Poli وهذا الاسم مع اللقب مكتوبان على الهامش

(٣) ذكر الدويهي بين حوادث السنة ١٦٤١ « وفيها استرجع الخوري بطرس خادم الكفريات في قبرس كنيسة السيدة التي كان اغتصبها الروم منذ ست عشرة سنة (د ٢١٥) .وفي خزانة المجمع المقدس رسائل مؤرخة في ٩ آب ١٦٣١ كتبها المجمع الى كريستودولو مطران اليونان في قبرس والى قنصلي البندقية في هذه الجزيرة وفي طرابلس لاسترجاع كنيسة شيتريا Citrea ، ولعلها الكفريات

(٤) المارونية برومية

(٥) يشير الى المهمة السياسية التي كلفه فخر الدين اياها

اعلمونا وامرونا حتى نفوز بقضيانها . نختم هولاي الاحرف طالبين لكم من الله معونه ورضى وهناوة خاطر وعمر طويل كتب من قنوبين كرسينا الانطاكي بجبل لبنان بشهور كانون الاول ٢٤ للسنة ١٦٣٣[1] .

تكون تعلم سيادتك بان وصلوا الحوايج التي بعثتوهم الاولين المطران قدمهم قدامنا لحضرة الامير المذكور اعني الانجيل عربي مذهب بكالاته[2] من فضه في كيس مخمال اصغار وايضاً ستة شمعات كبار مباركات وقونة سيدنا البابا وقونة السيد الكردينال بربرينو : وسيفين ملبسين كمخ اصغار الواحد ليونس حبيش خزندوكار الامير والاخر للخازن مع درع لقبطان كل العساكر هولاي اكابر طايفتنا[3] واصال اب عن جد والامير فرح في هولاي الاشيا كثير كثير وشكر فضل الكردينال وفضلكم قدامنا الخ .

والعنوان : الى السيد الشريف المكرم دون فوستو پولي وكيل للخرج على بيت البابا رومية .

ثانياً : مشروع المعاهدة . يذكر القراء كيف حبط مشروع احتلال الاراضي المقدسة، الذي عرضه فخر الدين في السنة ١٦٢٤، لتحاسد اسرتي مديشي، سيدة تسكانا، وبربريني سيدة رومة . فرأى الامير ان يتدارك هذه المرة الفشل باشراك الاسرتين معاً في الفوائد السياسية والدينية . فعرض عليهما، اذا نجحت الحملة، ان يصبح تادي بربريني، شقيق اوربانس الثامن، ووالد الكردينال فرنسيس بربريني، اميراً على جزيرة قبرس؛ وان يُتوج فردناندو الثاني، غراندوق تسكانا، ملكاً على اورشليم. ووعد الامير ان يجاهر بنصرانيته ويعمد اسرته وذويه، ويحمل جميع رعاياه وحلفائه على الاقتداء به . فينضمون، سواء كانوا مسيحيين منشقين، او غير مسيحيين، تحت لواء الحبر الاعظم، ويصبح لبنان

(١) توفي البطريرك يوحنا مخلوف في ١٦ كانون الاول ١٦٣٤، كما صرح الاساقفة الموارنة في عريضتهم الخاصة بانتخاب خلفه البطريرك جرجس عميره . وقد اخطأ الدويهي بقوله انه توفي في ١٥ كانون الاول ١٦٣٣ (د ٢٠٦) . ووجدنا للبطريرك مخلوف في خزانة المجمع المقدس برومية عدة رسائل مؤرخة في اذار ١٦٣٤

(٢) جمع بكلة اي قفل الكتاب

(٣) راجع ر ص ٢٧٩

مركزاً للكثلكة في الشرق، ومملكة قوية متحالفة مع ملك الفرس وامراء العرب العاصين على الدولة العثمانية، ومع ملوك الغرب النصارى . فتحمي اساطيلهم الراسية في قبرس شواطئه، الى ان يتسنى له انشاء اسطول لبناني، وتحمي مملكة اورشليم التسكانية جانبه الأيسر . اما في البرّ فهو الكفيل بصدّ القوات العثمانية وحده مهما بلغت من القوة والعدد .

ولم يفته ان المشروع بطيء المنال لاتساع مجاله؛ بيد انه كان واثقاً من ثبات قلاعه المنيعة بحضوره اكثر من سنتين، ثباتها في السنة ١٦١٣ بغيابه امام اربعة وثمانين الف محارب .

واليك تعريب هذه المعاهدة[١] :

« تقرير مختصر، رفعه المطران جرجس بن مارون[٢]، رئيس اساقفة نيقوسيا بقبرس، الى قداسة سيدنا في سبيل الاستيلاء على مملكة قبرس ومدينة اورشليم .

« ايها الاب الكلي الطوبى

« لما كان امير صيدا يغذّي في نفسه حباً شديداً للديانة المسيحية، ويضمر كرهاً طبيعياً للشيعة المحمدية، فهو يرغب في الاتحاد مع قداستكم وغراندوق تسكانا، وعقد محالفة دائمة . ولهذا الغرض يبدي استعداده للقيام بما يأتي :

١ ان يقدم رجالاً ومؤونة للجيش المسيحي كلما اراد قداسته وسمو الغراندوق ارسال حملة لاحتلال قبرس واورشليم .

٢ ان يسلم العمارة المسيحية ثغراً او اكثر من ثغور مملكته لتلجأ اليه في فصل العواصف .

٣ يعد بتسليم الحملة المسيحية مدينة اورشليم يداً بيد وتقديم كل ما يسعه تقديمه من المساعدات في مدة هذه المحالفة .

٤ يعد بان يسمح لجميع رعاياه باعتناق المذهب الكاثوليكي، وان يكون هو اول من يجاهر بنصرانيته ويعمد اسرته .

---

(١) نشرنا ترجمتها في مجلتنا البطريركية سنة ١٩٣٢ ص ٢٩٧ - ٢٩٩

(٢) Giorgio Maronio

٥ ولهذا الغرض قد احدث للمسيحيين على نفقته كنائس كثيرة، او رممها، واوصى بطريرك الطائفة المارونية وبقية الاساقفة ان يقتدوا به .

٦ يعد ايضاً بتأييد السلطة الكنسية في كل مملكته وتنفيذ اوامرها بكل دقة، واعفاء الاكليرس والكنائس واوقافها من كافة الرسوم والضرائب، التي جرت العادة بتحميلها للعلمانيين .

٧ يعد بان لا يعقد اتفاقاً او عهداً مع السلطان او مع احد وزرائه قبل ان يطلع قداسته وسمو الغراندوق عليه، وان يسير طبقاً لقرارهما في هذا الشأن .

٨ يعد بان يقدم لقداسته ولسموه الرهائن التي يطلبانها تأميناً لانجاز العهود السابق ذكرها .

٩ يعد بان يحمل غيره من امراء العرب ومشايخهم على محالفة الجيش المسيحي، الامر الذي يسهل عليه لعلاقة القرابة والزواج بينه وبينهم، وللفوائد الجمّة التي يجنونها من هذه المحالفة .

« ولقاء هذه العهود التي قطعها الامير على نفسه يأمل تلبية مطاليبه الآتية :

١ ان يجهز قداسته وسمو الغراندوق عمارة لا تقل عن خمسين مركباً، لتحتل جزيرة قبرس . واحتلالها سهل المنال لقلة عدد حاميتها من الاتراك، ولنفور اهلها من مظالم عمالهم . وسيعتري السلطان بلا شك الخوف من الاحتفاظ بهذه الجزيرة لضعف اسطوله وشدة بأس جيش الامراء المسيحي، والمساعدات التي يقدمها لهم الامير في حينها، من رجال ومؤونة على مختلف انواعها . وسيعجز السلطان عن ارسال النجدات الى هذه الجزيرة لانشغاله في الحرب، التي يثيرها عليه الامير وملك الفرس وغيرهما من الامراء الواقعين تحت حكمه .

٢ ان يمداه ببعض المعدات الحربية والبارود والرصاص اللازمة له لمقاومة العدو، لان ليس لها وجود في الشرق .

٣ ان يثابر قداسته وسموه على صداقة الامير ومحالفته ويبادلاه الرهائن ضماناً للعهود والشروط الآنفة الذكر، وان يعاهداه على نجدته في اثناء الحرب على الاقل بحراً . وهو يعاهدهما على انجاد الجيش المسيحي في زمن الحرب براً وبحراً وتقديم كل معونة مفيدة وضرورية له[1] » .

---

(١) ف ٤٢٠ و ٤٢١

ثالثاً : امنية المطران جرجس . ووجه المطران جرجس الى اوربانس الثامن نداء حاراً هذا تعريبه[١] :

« أمنية الاسقف المذكور

« ايها الاب الكلي الطوبى

« تنازلوا لقبول ما عرضه على قداستكم السيد الامير تحقيقاً لهذا المشروع الخطير، الذي اصبح النجاح فيه سهلاً لانضام الامير بكليته اليه، ولقوات الغراندوق العظيمة، ورغبة الشعوب الشرقية في خلع نير الاتراك القاسي . ان المولى يدعوكم الى احراز هذا النصر، الذي لم يتسنَّ للاحبار سلفائكم . يا لعظم الفخر الذي يخلد عهد حبريتكم عندما يشهر امير صيدا نصرانيته، وتتسابق الامم الخاضعة له الى اعتناق الدين المسيحي . فترتفع راية الصليب المقدس حيث كان العدو يدوسها، وتنتشر الكثلكة في تلك الاصقاع، ويعتز السيد المسيح في مدينته اورشليم، ويخضع الشرق بأسره لسلطانكم، ويتشجع سائر الامراء التابعين للسلطان على الخروج عليه والدخول في طاعتكم .

« حينئذ يتسنى لقداستكم ان تتوجوا في الشرق ملكين مسيحيين، الواحد على جزيرة قبرس، والثاني على اورشليم، الاول سمو الغراندوق، والثاني صاحب المعالي تادي بربريني، محافظ رومية .

« واذا اصبحت الجزيرة في قبضة الجيش الكاثوليكي سهل عليه احتلال اورشليم للاسباب المذكورة اعلاه، ولثقته بنفسه بعد الظفر؛ فضلاً عن المساعدة التي يقدمها له الامير والطائفة المارونية الكاثوليكية، القاطنة في منطقة مملكته .

« ومن الضرورة القصوى ان يبقى هذا الاتفاق في طي الكتمان، خوفاً من اثارة مطامع بقية الامراء المسيحيين، فتسنح الفرصة للسلطان ان يستعد للحؤول دون اماني قداستكم وسمو الغراندوق والامير . واذا حسن لدى قداستكم ولدى سموه، فرافع هذا الرجاء يشير بان يوفَد الى الامير، ريثما يتم تجهيز هذه الحملة، شخصان او اكثر يُخوَّلان السلطة الكافية للتعاقد معه، طبقاً للتعليمات التي يتلقيانها من قداستكم ومن

---

(١) نشرناه في مجلتنا البطريركية سنة ١٩٣٢ ص ٢٩٩ – ٣٠١

سموه، وان يكون احدهما، او كلا الاثنين، ملماً باللغة العربية وباصول المعاهدات . اما الحملة فتسير طبقاً للخطة التي يرسمها الامير، سواء كان للاستيلاء على جزيرة قبرس او لتحرير القبر المقدس[١] » .

رابعاً : مواجهة الحبر الاعظم . وأذن اوربانس الثامن للمطران بمواجهته، واصغى باهتمام الى مشروعه وحجته، وكلفه التعاطي مع الغراندوق بهذا الخصوص، كما يستنتج من الكتاب الذي وجهه المطران جرجس من رومية في ١١ تشرين الثاني ١٦٣٤ الى الغراندوق . وهاك ترجمته[٢] :

« الامير فخر الدين

« يا صاحب السمو

« يوم الاثنين المنصرم اذن لي قداسة سيدنا بمواجهة كانت على غاية ما يرام . حتى انه اوعز اليَّ بان اباشر حالاً العمل في المهمة التي كلفنيها الامير . واوصاني بالتكتم الشديد . وقد اثنى الثناء الطيب على ما اظهرتموه من الاستعداد للقيام بهذا المشروع الخطير .

« اما الكردينال بربريني، فبعد اطلاعه على بنود المعاهدة، سألني عن رأي سموكم فيها . ولما سمع بما دار بيني وبين سموكم من الحديث، سرَّ السرور كله وأمرني ان اقصد الى سفيركم فاوقفه عليها واتفاوض معه في شأنها . فاسرعت الى تلبية اشارته . وهذا الصباح قدم سفيركم الى كل من قداسة الحبر الاعظم ونيافة الكردينال بربريني تقريراً وضعته بنفسي عن مشروع الامير، اطوي على صورة منه هنا . وبعد ان تخابر ملياً بشأنه مع قداسته ونيافته بشرني انه ناجح باذن الله . وهذا ما حداني الى رفع الرجاء الى سموكم بان تواصلوا سفيركم باوامركم وتعليماتكم لتتسنى له ملاحقة المشروع، فتشملوا بافضالكم ليس الموارنة والامير فحسب بل العالم بأسره .

« واني اختم بالدعاء لسموكم لتبلغوا أوج المجد والسعد[٣] » .

عن رومية في ١١ تشرين الثاني ١٦٣٤ جرجس مارون

رئيس اساقفة نيقوسيا بقبرس

---

(١) ف ٤٢٢ و٤٢٣

(٢) نشرناها في مجلتنا البطريركية سنة ١٩٣٢ ص ٣٠١

(٣) ف ٤٢٣

خامساً : تسليم القلاع . حكى الاب روجيه «ان العمارة العثمانية وصلت الى صيدا في آب السنة ١٦٣٣ . ولما لم يكن في نيـة الامير ان يشهر العصيان على السلطان، ارسل يعد قائدها بمئة الف قرش وبولده منصور ضماناً لطاعته . ثم امر جيشه بالانسحاب الى داخل البلاد وولى عليه الشيخ ابا صافي، الذي مات كمداً لما منعه الامير عن اظهار بسالته في منازلة الاتراك . ولم يستبقِ لديه من الجنود سوى ثلاثة آلاف، سلّم قيادتهم الى ابي نادر .

« فارسل قائد العمارة يقول له انه مأمور تحت عقاب الموت بالاستيلاء عـلى قلعة صيدا . ومع ان الامير كان عالماً ان العمارة العثمانية لا يسعها الانتظار طويلًا لاقتراب فصل الشتاء، رأى ان يبرهن للسلطان عن حسن طاعته، فسلم القلعة . وكان يحرسها ثمانمائة جندي من البواسل، بقيادة مسيحي من نابولي اعتنق الاسلام اسمه فرنكو حسن .

« وقصد الامير الى بيروت، حيث لحقه الاسطول العثماني، واعلمـه قائده ان لديه اوامر مشددة بالاستيلاء ايضاً على قلعة هذه المدينة . فسلمها الامير وانزوى في الجبال عائشاً تحت الخيام . ولما رأى القائد انه لم يعطِه ما وعده به من المال، امر بنهب قصره في هذه المدينة وتخريب جنينته، وكانت من عجائب الدنيا، تحوي جميع اثمار الارض . ولما بلغ جيش البر العثماني ان الامير سلم القلعتين هاجم موارنة جبل لبنان، فخضعوا للسلطان . وما عتمت ان سلمت حصون غزير والبترون والقلعة التي بناها الامير فوق طرابلس، وقلعة الملكة استير في صفد . ولم يبقَ له سوى قلعة الفرنجي وقلاع الشقيف وعجلون ونيحا . فلجأ الى هذه الاخيرة وكان يشن الغارة منها على الجيش العثماني هو وحليفه رباح ملك العربان» .

سادساً : مصرع الامير . لدينا عن مصرع فخر الدين وثيقة لشاهد عيان في الاستانة، اكبر الظن انه فرنسيس ڤنتوريني[1]، مكاتب الغراندوق السري في هذه العاصمة . وهي مكتوبة بالشفره ومفسّرة بين الاسطر . اليك تعريب ما يخص الامير منها :

« ذكرتُ لك في رسائلي السابقة عن مجيء الامير فخر الدين، امير صيدا وصديق

---

(١) Venturini

الغراندوق الحميم . اختبأ منذ سنتين في قلعة[١]، كانت امتنعت على الاتراك لو تُركوا وشأنهم . بيد أن المدعو مارك انطونيو من بادوفا[٢]، المقيم في دمشق، والمشهور في تلك الانحاء، وقد جمع منها ثروة عظيمة، اشار عليهم بان يفتحوا بالازميل لغماً في الصخر[٣] . فاضطر الامير المسكين الى الاستسلام . واستاقوه الى هنا مع اولاده . اما بقية اسرته فبقيت في دمشق . وصل الامير الى هنا منذ ثلاثين يوماً[٤] وعامله السلطان بالرفق، حتى اصبحنا كثيري الامل بنجاته . فقد اثبت له انه قام سنوياً بتأدية الاموال الاميرية المرتبة عليه . بيد ان السلطان لم يتسلمها[٥] .

« وبعد ان سافر السلطان من هنا واصبح عـلى بعد خمسة وعشرين يوماً، بلغته حوادث الشام . ومؤداها ان احد اولاد اخي فخر الدين[٦] لجأ الى قبيلة من العربان في الصحراء . ولما سمع بأسر عمه واحتلال الاتراك مملكته، جمع حوله منهم جمعاً كبيراً وهاجم جيش باشا دمشق، فقُتل[٧] . لكن اولاده عادوا فجندوا عدداً كبيراً من العربان وهاجموا صيدا ومدينة اخرى اكبر منها . وهم الآن يعيشون فساداً في المدن؛ وان ايليف باشا دمشق، يستعد الان للركوب عليهم . فلما بلغت هذه الاخبار السلطان اصدر امره بقطع رؤوس زوجات فخر الدين واولاده في دمشق . فقطعوهـا وعلقوها

---

(١) نيحا . حيث لحقته زوجته علوه بنت سيفا، لتموت معه، كما روى الاب روجيه . بيد ان خادماً للامير دل العدو على مجرى المياه فافسدوه، فلجأ مع عياله الى مغارة جزين (د ٢٠٤)

(٢) يقول لوجيده انه بندقي . ر ص ٣٤٤

(٣) احموا الصخر الكلسي، وصبوا عليه الخل فلان لنقر الازميل ف ٤٢٥ . راجع ايضاً خ ٢٤٨

(٤) لما كان مصرعه في ١٣ نيسان ١٦٣٥، كما سيأتي القول، فتاريخ هـذه الرسالة حوالي ١٢ اذار من تلك السنة

(٥) روى المؤرخ هامّر Hammer ان « السلطان ادخـل ولدي فخر الدين حسين ومسعود سرايه في الغلَطه وجعلها من بطانته . ثم ضم حسين بك الى خدم غرفته الخاصة . وهو الذي اصبح بعدئذ وكيل خزنة الدولة ، وانتدبه السلطان محمد الرابع سفيرًا الى الهند . ولـه مجموعة خطب ومقالات اسماها « تميز » . وكتب تاريخًا لحوادث عصره . وكان في شيخوخته صديقاً للمؤرخ نعيمه Naima ، الذي اخذ عنه القسم الاكبر من اخبـار عهدي السلطانين ابرهيم ومحمد . وهو آخر انجال فخر الدين ، الذي اشتهر في اوربا برواية هاملتون قبل ان يعرفه المؤرخون . وفي ذاك العهد كانت شهرة فخر الدين قد طبقت آسيا واوربا » .

(٦) الامير ملحم ابن الامير يونس

(٧) لم يُقتل بل تمكن من الهرب، كما سيأتي القول

على دائر سور المدينة . واوفد الى هنا احد الباشوات مأموراً ان يقطع رأس فخر الدين . ففي الثالث عشر من نيسان قطعوا رأس الامير وعرضت جثته ثلاثة ايام في ساحة الجامع الجديد، يحرسها الانكشارية . وقطعوا ايضاً رأس ولد ثالث له جاء به قائد العمارة من سنتين [١] . وكان أُدخل القصر السلطاني . اماتوا هؤلاء كلهم في يوم واحد . . . [٢] »

وفي اسفل الوثيقة ارقام سنة « ١٦٣٥ »

٣ ـ **مصير الامير ملحم** ـ لم ينجُ من اسرة الامير فخر الدين سوى ولده حسين بن علوه بنت سيفا، وابن اخيه الامير ملحم، وبنتَيه المتزوجتين من مقدمي ابي اللمع . فاتجهت الجهود لتخليصهم .

اولًا : نجاة الامير ملحم . روى الاب ڤيتالي، الذي زار لبنان سنة ١٦٣٣ وكتب عنه تقريراً في السنة ١٦٤٣ [٣]، « ان قائد الحملة العثمانية قبض على الامير يونس [٤] وعلى ولديه . وبينما كان الاتراك يسومونه العذاب ليدلهم على مخبإ ماله التفت الى ابنه الاكبر وقال له بالعربية : هؤلاء بعد ان ينزعوا منا مالنا لا بد ان ينزعوا ارواحنا . فاذهب معهم الى المكان الفلاني، حيث اخفيت بعض الدراهم، ودلهم عليها . وفيما تراهم منشغلين بجمعها اسعَ لنفسك بالنجاة . ثم قال للاتراك : اذهبوا برفقة ولدي هذا، فهو يدلكم على مخبإ مالي . فذهبوا مع الشاب، واستدلوا منه على المكان وحفروا فعثروا على المال وسروا به السرور كله . وفيما كانوا منهمكين بجمعه حانت للشاب فرصة فهرب . وكان على جانب من البسالة والدهاء . فما ان التحق بذويه حتى جمع منهم جيشاً وقاده لمحاربة الاتراك، وانتصر عليهم في موقعتين . بيد ان عمه الامير فخر الدين كتب اليه من الاستانة ليكف عن القتال، على امل ان يستعيد منصبه . فاطاع وانزوى .

---

(١) الامير منصور، كما مر بك . رص ٣٤٥

(٢) ف ٤٢٦ ـ ٤٢٧

(٣) نشرناه وعربناه في مجلتنا البطريركية . كانون الثاني ١٩٣٦ ص ٢٤ و ٢٥

(٤) كتب اليه القائد بالامان فنزل من دير القمر . وحالما حضر لديه قتله (د ٢٠٤)

« واستبقى الامير ملحم مائة من رجاله، لجأ بهم الى امير من العربان[1]، فخانه وسلمه الى الاتراك. فاستاقوه الى دمشق. ولما اقتربوا منها عرجوا العصر على احد الخانات. فصعد الامير الى السطح وسأل حارسيه ان يفكا وثاقه ليصلّي. فلبياه. ثم بعث باحدهما الى النهر القريب ليستقي له ماء للتوضئة. ولما توارى عنه ورأى نفسه وحده مع الحارس الآخر ضمه الى صدره وضغط عليه ورمى به وبنفسه الى اسفل. فرُضَّ الحارس رضاً اليماً، واصبح اقرب الى الموت منه الى الحياة. ونجا الامير بنفسه ».

وعلمنا من تاريخ الدويهي ان فخر الدين اختبأ في مغارة جزين مع المشايخ ابي نادر وابي علوان وابي صافي. فأُسروا سوية. وان الامير حسين، والي طرابلس، لجأ مع مدبره الشيخ ابي نوفل الى قلعة المرقب. وان الامير ملحم احتمى بالامير طرابيه. اما عسكر الدولة فزحف على بلاد الدروز وقتل منهم خلقاً كثيراً. وولى قائده على بلاد الشوف الامير علم الدين اليمني، الذي قبض على وجهاء بيت معن وقتلهم وسلبهم مقتنياتهم. وعندما توجه الى اعبيه دعاه الامراء التنوخيون للغداء، فقبل دعوتهم وغدر بهم وباطفالهم، حتى انقطعت سلالتهم من الذكور. ولما علم الامير ملحم بهذه الخيانة ركب على اليمنيين ونازلهم في المقيرط فوق مجدل المعوش، وظفر بهم، وقتل كاخية كجك احمد باشا. فتجددت الشكايات على بيت معن واصدر السلطان امره بقتلهم وولى آل سيفا ولاية طرابلس. وقبضت عساكر الدولة على الامير حسين وعلى مدبره الشيخ ابي نوفل وارسلوهما مخفورين الى حلب، حيث تمكن الشيخ ابو نوفل من النجاة بحيلة. وكفل الامير علم الدين الشيخ ابا نادر الخازن فسافر في السنة ١٦٣٥ الى بلاد الغراندوق مع ولده نادر واخيه ابي خاطر[2] ».

ثانياً : توصية البطريرك عميره. توفي البطريرك يوحنا مخلوف الاهدني في ١٦ كانون الاول ١٦٣٤ كما سبق القول، فخلفه في السابع والعشرين من الشهر عينه البطريرك جرجس عميره الاهدني، احد نوابغ المدرسة المارونية برومية، واول بطريرك من تلاميذها. ولما عزم الشيخ ابو نادر على السفر الى ايطاليا تزوّد منه كتاباً الى الكردينال فرنسيس بربريني محامي الموارنة، مؤرخاً في ١٠ حزيران ١٦٣٥، اليك تعريبه عن الايطالية :

(١) طرابيه، صاحب غزه

(٢) د ٢٠٤–٢٠٦

« بعد ان سفَّرنا قصادنا لتقديم واجبات الاحترام والطاعة الى صاحب القداسة والى نيافتكم، فوجئنا بسفر السيد النبيل ابي نادر، حاكم هـذه البلاد في عهد الامير فخر الدين . وقد الح علينا ان نصحبه برسائلنا وبالاب يعقوب من ڤاندوم من رهبنة الاخوة الصغار، ليرافقـه الى اعتاب قداسته ونيافتكم، سعياً وراء الدواء الناجع للمصائب والاحزان النازلة به وبنا وبسائر مسيحيي الشرق، كما تسمعون منهم مشافهة . ولهذا نتوسل باتضاع الى نيافتكم ان تقبلوهما بصـدر حنون وتخولوهما الحماية، وتوصوا بهما قداسة الحبر الاعظم وبقية المراجع العالية، وان تعيدوا الينا الاب يعقوب باقرب وقت، لان اقامته بيننا عزيزة لدينا وضرورية لنا[1] . وان تتكرموا عليـه بجميع التعليمات والاوامر والمساعدات اللازمة لحالتنا التعسة، التي شرحناها برسائلنا السابقة[2] . فان لم نفز بمعونة الله واسعافكم، استحال علينـا البقاء، وامحى الاسم الكاثوليكي من الشرق كله . فضلاً عن خسارة الاماكن المقدسة، المكرسة بدم الفادي الالهي، الذي نتوسل اليه ان يمنحكم حياة مديدة مقرونة بالسعادة والتوفيق[3] » .

ثالثاً : مساعدة فردناندو الثاني . ويظهر ان ابا نادر والاب يعقوب قصدا اولاً الى رومية وفازا من الكرسي الرسولي بكتاب توصية الى الغراندوق. وقدم الاب يعقوب الى الكردينال فرنسيس بربريني تقريراً عن مشروع حملة تشترك فيها مراكب الكرسي الرسولي وتسكانا ومالطه الحربية . فتحتل قبرس « بمؤازرة ابي نادر وابنـاء طائفته الموارنة »، والذين نأمل ان نذهب قريباً لانقاذهم؛ فضلاً عن الدروز القادرين على تأدية مساعدة تذكر في هذه الحملة . حتى اذا تم احتلال قبرس ضمناً الاستيلاء على كامل سوريه بواسطة المذكورين » .

---

(١) روى الاب جلوبوفتش في مجموعـة وثائق الرسالة الفرنسيسكانية في الشرق، ان البطريرك الماروني واساقفته الحوا على الاب يعقوب، بعد نكبة فخر الدين، ان يبقى بينهم، وتكفلوا له بكل خسارة قد تلحقه

(٢) كتب الى المجمع المقدس في اول اذار ١٦٣٥ يخبره ان ملكياً وشى به انه يخبئ لديه جواسيس يعملون للاستيلاء على بلاد السلطان . فارسل عليه قائد الاتراك جنوداً سلبوه الف قرش ونهبوا دير قنوبين .

(٣) ف ٤٢٩ – ٤٣١

ويشير الاب يعقوب الى ضرورة التفاهم مع ملك العجم وعرب اليمن، العاصين على السلطان، «وثوار سوريه وفلسطين. لان ضلعهم مع المعنيين وذويهم، ويرتاحون الى شد إزر المسيحيين اكثر من شدهم إزر الاتراك[1]».

وكان لابي نادر في رومية منزلة وكرامة؛ وقد كتب اليه المجمع المقدس اكثر من مرة يوصيه بالمرسلين وخاصة الكبوشيين. فسلمه الكردينال بربريني، احد اعضاء هذا المجمع، كتاباً الى الغراندوق فردناندو الثاني يوصيه بمساعدته. فنزل الغراندوق عند رغبة الكردينال وجهز الى لبنان غليوناً لتخليص الامير ملحم والمقدمين ابي اللمع، اصهار الامير فخر الدين. وكان مستعداً ان ينزلهم في ضيافته. لاسيما ان اموال فخر الدين، الناتجة عن بيع الاسرى والاجواخ، بقيت في يده، كما سبق القول[2]. فركب ابونادر الغليون، وتريث مع عياله في مالطه، واوفد ابنه نادراً والقس يعقوب بالغليون ليأتوا بالمذكورين بعد ان يمدوهم ببعض المال. يُستدل على ما قلناه من كتاب وجهه بالعربية ابو نادر، بعد عودته من مالطه، الى الكردينال بربريني. اليك نصه:

الى حضرة سيدنا السيد العزيز الكردينال بربريني المكرم
دام عزه امين

لما كنا عند سعادتكم اتكلمنا مع حضرتكم اننا نكون ساكنين تحت نضركم السعيد وحلمتم وقبلتونا بوجه مليح الله يديم بقاكم وجبنا مشرفتكم وتوجهنا لعند حضرة كراندوكا وعرظنا عليه مكتوب سعادتكم فكان جوابه جايز واعطانا غليون وكلام مليح بطيبان الخاطر كله ببركت نضركم علينا وقال لنا تكون سكنتكن عندنا ادا جا احداً من بيت معن تكونو معه قلنا له جايز وتوجهنا الي مالطا وارسلنا

---

(١) ف ٤٣١ و٤٣٢

(٢) ر ص ٣٣٩

ولدنا والقسيس يعقوب في الغليون الي بلاد الشرق واعطيناهم مكاتيب وعاودنا بعيالنا الي الكرنه واين ما كنا تحت نضر حضرة سيدنا البابا المكرم ونضركم الشريف الله تعالى وتبارك يرزقنا من بركت صلاتكن ودعاكم الصالح لنا ولجميع النصاره وبعد دالك عاود ولدنا والقسيس يعقوب واخبرونا ان ولدنا طلع الي الارض واجتمع في قرايب بيت معن المقدمين بيت بالمع ارسلو مكتوبنا لحضرة الامير ملحم اتوجه المرسال وقف خمس اعشر يوم وعاود المرسال واخبرهم انه ما قدر يهتدي على حضرة الامير ملحم لانه مخفي حاله فرسلو قاصداً ثاني وعاود ولدنا للغليون وكانوا خدوا سابقاً ناس مسلمين وكان فيهم ريحت طاعون وصار في الغليون ريحه وراح منه بعض ناس فما عاد امكن انهم ينطرو الجواب الثاني من الامير ملحم وكدالك خبرونا ان اعدا بيت معن انفتنو في بعظهم بعض وصار بينهم كونين ثلاثة ومحبين بيت معن استراحو وامنو عن الاول في فتنت اعداهم ومترجايه جميع دلك البلاد ان بيصير لبيت معن حال لان ما بقا يبطل الفتنات والشرور الدي قايمه في بلاد الشرق الا ببيت معن وداكرين ان حضرة الامير حسين ابن الامير فخر الدين صاير له مجابره ووعد بالخير من الوزير[1] وواحد من بيت الشهاب من قرايب بيت معن اتوجه الى اصطنبول

---

(١) روى الدويهي ان باشا طرابلس عين الامير علي سيفا على حكم جبيل وعمه عساف سيفا على عكار . فاختلفا وتحاربا فتغلب عساف على ابن اخيه وسلخ منه بلاد جبيل . وفي العام القادم قصد اغا الانكشارية في الشام مقاتلة الامير علم الدين اليمني، الذي تولى الشوف مكان فخر الدين، لعجزه عن تأدية الاموال الاميرية . فانضم اليه المقدم مراد ابي اللمع وهزموا الامير علم الدين . وتوالت الفتن والمعارك في لبنان، مما اقنع الباب العالي ان آل معن قادرون وحدهم على حكم البلاد وتأدية الاموال الاميرية، لاحترام اللبنانيين لهم وتعلقهم بهم . (د ٢٠٧ - ٢٠٩)

يدفع علي ابلادهم مال وفي هاكل محل[١] ما كان بعد جا منه جواب وانشا الله تعالى ببركت نضر حضرة سيدنا البابا المكرم حفضه الله تعالى ونضركم الكريم الاخره الي خير باقي وسعادتكم في حفض الله والدعا

ومن العبد[٢] تقبيل تراب اقدام سيدنا البابا المكرم عبدكم حفضه الله تعالى وابقاه لساير النصارى امين يا رب العالمين ابو نادر

رابعاً : رجوع الغليون . ولدينا رسالتان، كتبهما مقدمو ابي اللمع الى الكردينال بربريني والى الغراندوق، يخبرانهما عن سبب عاقتهم عن ركوب الغليون . اليك نص الاولى، وهي بخط الشيخ ابي نوفل وخالية من التاريخ، بيد ان رفيقتها تحمل تاريخ ٧ نيسان ١٦٣٦ :

الي حضرة سلطانم كردنال باربريني المكرم
حفضه الله تعالى امين

يقبل الارض مبتهلًا الي الله ولحضرتكم باالافادة وبدوام العز وتخليد السعاده وبلوغ الاراده امين والثاني ان تفضلتم عن حال عبيدكم في السال لله الحمد وبركت نضركم الشريف بخير وبتوب العافيه ومقيمين بدعا الخير لسعادتكم وحضر لعندنا لهده الجانب عبيدكم القسيس يعقوب والشيخ نادر وصحبتهم غليون من حضرة كراندوكا المكرم حفضه الله تعالى واياكم بالخير زمانً طويل ودكروا لنا ان سعادتكم تفظلتم علينا في مكتوب لحضرة الدوكه المكرم بسبب دالك الله تعالى وتبارك يديمكم لنا زمانً طويل ويبلغكم امانيكم

(١) ذاك المحل

(٢) هو ابو نوفل كاتب الرسالة

وكان اقصا مراد عبيدكم التوجه لتقبيل ركابكم السعيد ونقبل تراب اقدام حضرة سيدنا ومولانا البابا نصره الله تعالى لان من حضي بدالك حضي بسعادة لاكن ياسلطانم بوصول الغليون كانت العيال متفرقا وحدة[1] في الغليون ريحت طاعون ما عاد فيهم نطرونا حتى نكون جمعنا عيالنا ونتوجه معهم وكدالك ولدكم ومخلصكم الامير ملحم كان بعيد ما عاد صار مهله حتى يكون وصل ويتوجه مع الغليون فلزم الامر وكتبنا لحضرة كراندوكا مكتوب انه يجعل نضره السعيد علينا بوجه الربيع يرسلنا غليون مانع حتي نتوجه لتقبيل ركابه وركابكم ونحنه علي كل حال عبيدكم وغرز نعمتكم ومسممين بكم[2] وكل العالم تعلم دالك ونحنه علي قدم الطاعه لسعادتكم ان كنا في هل جانب ام بجانب سعادتكم ومقيمين علي المودة الدي كانت بين سعادتكم وبين حضرة الامير فخر الدين والقسيس يعقوب والشيخ نادر بيعرفوا حالنا بالطفصيل وهم بيحكو لسعادتكم باقي وحضرتكم في امان الله تعالى وحفضكم على الدوام والدعا

ومن العبيد[3] تقبيل تراب اقدام حضرة سيدنا ومولانا البابا نصره الله تعالى امين

عبيد بابكم
المقدم علم الدين
وقرايبه

(الختم على قفا الوثيقة)

---

(١) وحدث

(٢) مسميّين بكم

(٣) اقارب ابي اللمع

وهاك نص الثانية[١] :

الا حضرت سلطانم كران دوكه المكرم حفظه اله تعالي

بعد تقبيل ايادي سعادتكم الكرام خلد اله تعالي ايام دولت سعادتكم الا يوم المقام بجاه سيد الانام اولان مزيد الشواق الا تقبيل الركاب السعيد والثاني ان منيتو علي عبيدكم بسال الا اله الحمد وبيركت نضر سعادتكم بخير ومقيمين بدعا الا حضرت سلطانم اله تعالي من منه و كرمه يبقي لعبيدكم دوام دولتكم العاليه اعلاها اله في الدارين بحرمت سيد الكونين وبعده احسان سعادتكم[٢] وخيركم الذي اتكلفتو به علي يد عبدكم القسيس يعقوب والشيخ نادر ومكتوب عبدكم الشيخ ابو نادر وصلو اله تعالي وتبارك يرضا عن سعادتكم ويديم دولت حضرتكم وفي الحقيقا ما نحنا الا عبيد دولت سلطانم ومن جملت الداعجيه ومن شرات سعادتكم ونصبتكم وكل العالم تعلم ومن خصوص توجهنا الا تقبيل ركابكم السعيد واله العضيم وحيات راصكم العزيز كان اقصى مرادنا واجل مقصودنا واله شاهد لاكن سلطانم في حين وصول الغليون العامر بيام دولتكم كان حضرة و[لد]كم الامير ملحم بعيد ومن عبيدكم العيال متفرقا والامر جا علي غفله ونطلب من اله ان يكون لنا نصيب في تقبيل ركابكم السعيد لان من حضي بتقبيل ركاب سعادتكم حضي بسعاده والخير

(١) هذا الخط مختلف عن خط الرسالة السابقة. وهو سقيم ولغير مسيحي، لانه يلقب نبي الاسلام «بسيد الانام وسيد الكونين»

(٢) مما يدل على ان الغراندوق ارسل اليهم مبلغاً من المال .

فهذه سبب قلت توجهنا في هاذه الخطره والمرجو من وسع حلمكم العميم بان تاخذونا في جانب الحلم ومن كرمكم ونعمكم ترسلوا تاخذونا في وجه الربيع الاتي الا تحت نضركم السعيد ويكون لنا بذالك الحض الوافر لاننا عبيدكم ومسميين ومتعلقين بجناب سعادتكم العالي وانشا اله كل من تعلق بجناب سعادتكم ما يضنام[1] وبحيات راصكم العزيز بحق ما انعم اله عليكم لا تخلونا يا عبيدكم من نضركم ولا تنسونا من الرسال لنا في وجه الربيع الاتي ورجانا من سعادت سلطانم ذالك ان العبد ما له الا اله ومولاه باقي وسعادتكم في امان اله تعالي وعونه علي الدوام والدعا

ومن جهت الامير علي[2] جانا ورقه من عند الناس الدى كان عندهم ويدكروا انه طيب ونقل من عندهم والورقه والورقه قريها الشيخ نادر والقسيس يعقوب وانشا الله عن قريب بيصال لسعادتكم من حضرة اخوكم الامير علي مكاتيب علي ما في خاطره ومن العبيد تقبيل ايادي حضرة مداما حفظها الله تعالي واياكم بالخير زماناً طويل امين والدعا

حرر ذالك في اوايل شهر ذي القعده من شهور سنة خمسه واربعين والف[3]

الاختام على ظهر الورقة عبدكم الد عبدكم الد[4]

عي مراد . . . .

---

(١) ينضام

(٢) ابن الامير فخر الدين . كان يظن انه حي يرزق

(٣) ٧ نيسان ١٦٣٦ . ف ٤٣٣ - ٤٣٦

(٤) اطراف الرسالة متاكلة . لكننا علمنا من الترجمة الايطالية (ف ٤٣٥) ان اصحاب الامضاءات هم المقدمون علم الدين وقايدبيه ومراد .

خامساً : نشاط الحزب المغني . ويظهر ان الاب يعقوب لم يتمكن من شرح مشروعه مشافهة للكردينال بربريني، فقدم له تقريراً هذا تعريبه :

« الاب يعقوب من ڤاندوم، العائد من سوريه برفقة ابن السيد ابي نادر، قائد جيش الامير فخر الدين سابقاً، يعرض لنيافتكم ما لم يسعه عرضه مشافهة، لكثرة اشغالكم . فهو مضطر ان يرجع باقرب وقت لدنو فصل الشتاء، وللامل الذي يغذّيه بالعثور في ليڤورنو على مركب يقلُّه الى تلك البلاد، حيث يترتب عليه ان يحافظ على الاتفاق، الذي تمّ ببركة دعائكم واحسانكم .

« لقد ثبت ان الامير علي، ابن الامير فخر الدين، حي يرزق . ويُقال انه قضى الاشهر الاخيرة في بلاد العجم، للاتفاق مع مليكها، وانـه يقيم الان بين اصدقائه العرب في المنطقة الواقعة بين دمشق والناصرة، حيث شاهده البعض . اما الامير ملحم ابن عمه فمختبئ مع اصحابه في جهات دمشق . وقد حشد اصهار فخر الدين، بقيادة والدهم المقدم علم الدين[1]، الفي رجـل في الاماكن المنيعة، وفي ظلال الاحراش الواقعة فوق بيروت . وهم يلقون الرعب في كل مناطق سوريه . وقـد حادثناهم وعاهدونا، وكتبوا الى نيافتكم والى سمو غراندوق تسكانا . وهم يميلون الى النصـارى الميل كله، ومستعدون واصدقاؤهم لخدمتهم . في وسعهم ان يجندوا من عشرين الى خمسة وعشرين الفاً، بينهم قسم كبير من المسيحيين، وتراهم منتظرين بفارغ الصبر ان يعقد امراء النصرانية النية على امر ما [ليؤازروهم] .

« للاستيلاء على الارض المقدسة، واحتلال جزيرة قبرس بمساعدة هؤلاء، يكفي تجهيز عشرين الى خمسة وعشرين غراباً، وعـدداً يماثلها من المراكب، وتجنيد خمسة وعشرين الف محارب . وتدبير هذا العدد من الرجال والمراكب لا يصعب على جهود الكرسي الرسولي وفرسان مالطه ودولة تسكانا ؛ فضلاً عمـا يقدمه ملك اسبانيا، وغيره من عواهل النصارى، الراغبين الرغبة كلها في القيام بهذه الحملة .

« ليس في داخل كل سوريه قلعة واحدة مجهزة بالمؤن والاسلحة والرجال . بينما يستطيع المسيحيون ان يجهزوا بعضها باقل من اربعة اشهر تجهيزاً يؤهلها للصمود في وجه الاتراك[2] » .

---

(١) ابي اللمع، صاحب الرسالة السابق نشرها .

(٢) ف ٤٣٦ و٤٣٧

سادساً : مشروع احتلال صور . ويُستدل من ثلاثة تقارير عثرنا عليها بين الوثائق المديشية ان الغراندوق فكّر في احتلال صور وقبرس . فهناك تقرير قدمه له في السنة ١٦٣٦ الاب برنردوس من روسانو[1] بالايطالية، عن طريقة احتلال قبرس . وآخر وضعه له باللاتينية ابرهيم الحاقلاني، وصف فيه هذه الجزيرة وموانئها، وصفاً ينمّ عن معرفة تامة بها . وللاب يعقوب المذكور اعلاه تقرير عن صور وقبرس وطريقة الاستيلاء على الاراضي المقدسة وضعه في السنة ١٦٤١، اي قبيل عودة الامير ملحم الى حكم البلاد، لا يختلف كثيراً عن تقريره السابق . ومما جاء فيه « صور قابلة للتحصين باقل من شهر، لان فيها عدداً كافياً من الحجارة المقصّبة الجاهزة للعمار » . وهو عين ما قاله المهندس ماشنجي في تقرير السنة ١٦١٤[2]، وما سبق لفخر الدين نفسه تأكيده للغراندوق بعيد وصوله الى تسكانا[3] . فان اضفنا هذا الى ما ورد في شكوى القنصل الفرنسوي في السنة ١٦٣٢ عن سماح فخر الدين للتسكانيين باقامة حصن في صور، تثبتنا من نية الامير وحليفه الغراندوق في تعزيز هذا الموقع الممتاز من السواحل اللبنانية .

واكبر دليل على ما عقد عليه الغراندوق نيته، بعد مصرع صديقه الامير، رسالة كُتب في اعلاها « مشروع الحملة على صور في فلسطين، ١٦٣٧ »، أُرفق بها رسم موقع صور، الذي نشرناه في الجزء الاول من هذا الكتاب[4] . وهي تحمل تاريخ ١٥ تموز ١٦٣٧، وقعها صاحبها بالحرفين الاولين من اسمه، واوصى فيها باستخدام احد رؤساء المراكب « لكفاءته، فان فاتتنا مساعدته فاتتنا انتصارات عديدة من شأنها ان تجدد ذكرى حملات سمو الغراندوق فردناندو الاول » . ويحث فيه على « الاستعلام سراً عن هذا الرجل، سعياً وراء تعزيز الاسم التسكاني » . ثم يخبر كاتب الرسالة عن جهوده في سبيل الحصول على رسم صور، ونجاحه في هذا المسعى، واضطراره الى نسخه بيده مع قلة خبرته بهذا الفنّ . ويردف بقوله « واتصل بي ان صور بيد الاتراك، لان فخر الدين لم يترك وريثاً . ورغبتنا في هذه الحملة غير ناشئة عن حب التوسع والمكاسب، بل تخليداً لاسم سمو فردناندو الثاني، كما خُلّد اسم فردناندو الاول .

(١) Fra Bernardo da Rossano

(٢) ر ص ٢٠٣

(٣) ر ص ٢٢٦

(٤) ف ٢٢٤ – ٢٢٦

ولعل الامل في نجاح هذه الحملة اوفر منه في الاولى . واني اراهن على حياتي انها غير فاشلة . شرط ان لا ندع الفرص الملائمة تفوت .

« اما الرئيس، الذي اشرت اليه، فلديه ثلاثة اغربة مشحونة بارودا، فضلا عن اغربة رودس، وغيرها من القوات والاستعدادات . واني اعد نفسي سعيدا في القيام بقسطي من هذا المشروع والاشتراك في النصر الذي طالما تمنته نفسي[1] ».

٤ ـ ولاية الامير ملحم ـ بيد ان الفوضى التي عمت البلاد بعد مصرع فخر الدين، لعجز من خلفه من اعدائه عن ادارة دفتها[2]، وما تذوقه اللبنانيون من الراحة والرخاء والعز في عهد المعنيين، حملهم على شد إزر الامير ملحم، وتمكينه من القبض بالقوة على حكم البلاد . ولما رأى الباب العالي ما للاسرة المعنية من المكانة في قلوب الشعب، وانها الضامن الوحيد لعود الطمأنينة الى البلاد، واستيفاء الاموال الاميرية، اقرّه في منصبه .

اولاً : تحسن حال المعنيين . بين الوثائق الدالة على انتعاش الامل بعودة المعنيين الى الحكم رسالة وجهها من پيزا اسحق الشدراوي، مطران طرابلس الماروني[3]، الى رئيس المجمع المقدس برومية، بتاريخ ٢١ شباط ١٦٣٧، جاء فيها : انني راغب من صميم

(١) ف ٤٣٦ - ٤٣٩

(٢) من شواهد الفوضى، التي كانت سائدة في البلاد، كتاب ارسله الى رومية الخوري يوسف سعد، Fautiano، احد تلاميذ المدرسة المارونية برومية بتاريخ ١٠ ايار ١٦٣٧، بعيد وصوله الى صيدا، قال فيه « باتت البلاد خراباً، والمنتمون الى الامير في اشد الضيق . وقد سُبيت بقرب بلاد الدروز الف وخمسمائة امرأة، بين درزيات ومسيحيات، فضلًا عن البنات والصبيان والرجال . . . ولي الامل ان ابحر قريباً الى طرابلس، لانهم نصحوني ان لا اسافر اليها برًّا لكثرة قطاع الطرق . يتنازع طرابلس اثنان من الباشوات . وكل منهما يدّعي الحق في ولايتها » .

(٣) احد نوابغ المدرسة المارونية برومية . نال شهادة الملفنة في علمي اللاهوت والطبيعيات . عرب عن اللاتينية كتاب « المعلم والتلميذ » (د ٢٣٨ والدبس ٣٧٣) . نشر له المطران سركيس الرزي سنة ١٦١٨، في مطبعة المدرسة المارونية برومية وعلى نفقة البابا بولس الخامس، اجرومية سريانية نالت شهرة واسعة في ذاك العهد . راجع المشرق (٢ : ٩٣٩ - ٩٤٩)، حيث تجد رسمه ومفكرات رحلته الى فرنسا . راجع عنه ايضاً شيخو (مخطوطات النصارى ص ١٢٢) افادنا الرحالة دلاروك De la Roque ان الكردينال بلرمينو Bellarmino استدعاه الى ميلانو ليرتب مكتبتها . توفي سنة ١٦٦٣ .

الفؤاد في الرجوع الى الوطن، لولا ان رجوعي الان يعرّض كرامتي وحياتي للخطر. بيد اني فاتحت في الامر السيد ابا نادر، القائد العام، فاخبرني انه تلقى من البلاد نبأً مؤداه ان هناك املاً كبيراً بأن يخلف فخرَ الدين في الولاية على البلاد احدُ اولاد ابن اخيه. انا منتظر بفارغ الصبر التثبت من صحة هذا النبإ لاعود برفقة السيد المذكور، لان رفقته تخولني مزيّة السفر بطمأنينة في مركب مسلّح تسليحاً تاماً، يقدمه له الغراندوق[١]. فضلاً عن المكانة التي تصبح له في البلاد، اذا صح الخبر، فيدرأ عني كل خطر يرميني فيه اعدائي الظلمة[٢] ».

ثانياً: عودة ابي نادر. وكتب الاب يعقوب من الاسكندرية في ٢٠ ايار ١٦٣٧ الى الكردينال بربريني يخبره انه « وصل سالماً الى الارض المقدسة مع الدراهم والاغراض التي تسلمها في مسّينا. وبعد ان بذل المساعي في سبيل ذوي فخر الدين، تلبية للاوامر التي تلقاها، وكلف ربان المركب الذي حمله ايصال رسائلهم الى المتأخرين في فلورنسا، انزوى في الاسكندرية نزولاً على شور اصدقائه، ودفعاً للشبهات التي قد تحوم حوله. واردف بقوله « نحمد الله لتحسن الاحوال شيئاً فشيئاً. فالامير ملحم، ابن اخي فخر الدين، يتولى الان شطراً كبيراً من البلاد برضى السلطان، الذي نزل عند طلب الشعب كله، لاسيما الدمشقيين. والامل كبير ان يستعيد الامير جميع المقاطعات التي كان يتولاها عمه. وفي هذه الحال اصبح عود السيد ابي نادر، المقيم الان في فلورنسا، امراً ضرورياً، سواء اكان لمصلحة المسيحيين الوطنين، الذين ساءت احوالهم كثيراً وآلت الى الخراب، او لاسباب غيرها »[٣].

ولدى ورود هذه البشرى الى الشيخ ابي نادر الجر الى لبنان بصحبة المطران اسحق الشدراوي[٤]، الذي كتب من بيروت كتابين بالايطالية، الواحد باسم ابي نادر والثاني باسمه. الاول يحمل تاريخ ٢٨ ايلول ١٦٣٧، وهو اليوم الذي وصلا فيه، وجهه الى الغراندوق. اليك تعريبه:

---

(١) ذكر ناشر الدويهي (د ٣٠٨ ح ٥) انه طالع في منزل الشيخ بطرس كنعان الخازن كتاباً اوصى فيه الغراندوق فردناندو الثاني بالشيخ ابي نادر، ليعفى من رسوم السفر في المراكب التسكانية كلما شاء المجيء الى اوربا هو او احد افراد عائلته.

(٢) ف ٤٣٩

« بعد ان مكثنا في البحر سبعة وعشرين يوماً وصلنا بعون الله الى الوطن العزيز . وثق سموك اني واولادي واحفادي نعدّ انفسنا مدينين لافضالك، اكثر من الدين الذي قد يترتب علينا لو بقينا لديك في فلورنسا » . ثم يثني على معاملة انجيلو دانجيلي[١] ربان المركب، ويخبره ان ابن اخي الامير فخر الدين يتولى حكم البلاد، وانه تحقق من بقاء الاميرين علي وحسين في قيد الحياة « والامل وطيد ان يبلغا مآربهما . اما البلاد فهادئة » .

وكتب المطران اسحق باسمه الى الكردينال بربريني بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني يخبره بوصوله سالماً في ٢٨ ايلول ١٦٣٧ الى بيروت، حيث يخيم السلام، خلافاً لطرابلس وغيرها من البلدان التابعة لآل سيفا « فقد آلت الى الخراب لجور حكامها، وللفوضى الضاربة اطنابها فيها ». وتابع كلامه بقوله « لم اتمكن بعد من مقابلة السيد البطريرك. وهو لما علم بقدومي ارسل ينصحني بان اتريث في بيروت الى ان تتحسن الاحوال . فقد سجنه الحكام منذ خمسة عشر يوماً مع شخصين من وجهاء الطائفة، وغرّموا كلّاً منهم ثلاثة آلاف سكوت . وقبل وصولنا باربعين يوماً انتقل الى رحمته تعالى المطران جرجس بن مارون، رئيس اساقفة قبرس[٢] . تركتُ ولدي يوحنا[٣] في المدرسة ضماناً لمحبتي ومعرفتي الجميل لنيافتكم . فاوصيكم بـه خيراً، آملاً ان تشملوه دائماً بعين الرعاية والحنو. وانني اعدّ نفسي سعيداً لو تلقيتُ هنا اشارة تمكنني من خدمتكم».

ܐܝܣܚܩ ܡܝܛܪܦܘܠܝܛܐ
ܕܛܪܦܘܠܝܣ ܡܪܘܢܝܐ ܡܣܟܝܢܐ (4)

اعني : الحقير اسحق مطران طرابلس الماروني

---

(١) هو الذي حمل في السنة ١٦٣٣ رسالة الاب ادريان دلابروس الى الغراندوق (ر ص ٣٤٣)

(٢) توفي اذن في ٢٤ تموز ١٦٣٧ . وقد جاء خطأً في الجزء الاول (ف ٤٤٢) انه توفي في ١٩ تشرين الاول . روى الدويهي (ز ١٣٨ ق) انـه لجأ (بعد رجوعه من ايطاليا) الى قبرس في السنة ١٦٣٤، ومنهـا جاء الى اهدن (مسقط رأسه)، حيث توفي . ودفن بجوار مار يعقوب

(٣) كان متروجاً، كعادة الاكليرس اللبناني، ولما ترمّل رقـاه البطريرك مخلوف في ٢٥ آذار ١٦٢٩ الى اسقفية طرابلس (الدبس ٣٧٣ نقلاً عن السمعاني، الذي ترجمه في مكتبته الشرقية ١ : ٥٥٢)

(٤) ف ٤٤١ و٤٤٢

ثالثًا : بين الامير ملحم ووالي دمشق . روى الدويهي ان الامير علي بن علم الدين توصل في السنة ١٦٣٨ الى نزع ولاية الشوف من يد الامير ملحم بمساعدة نائب الشام وطرد مشايخ بيت الخازن والحبيشية الى بلاد جبيل[١] . وفي السنة ١٦٤٢ تمكن الامير ملحم من استرجاع ولايته، كما جاء في رسالة وجهها في ٢٥ تشرين الاول من السنة المذكورة الخوري يعقوب عواد الحصروني الى احد معارفه برومية، قال فيها ما تعريبه «وصل الى طرابلس باشا جديد . واصطلحت احوالنا عن ذي قبل . لاسيما ان ابن اخي امير صيدا تعيّن بامر سلطاني على كل البلاد التي كان يتولاها عمه . فساد السلام البلاد، وعاد النازحون كل الى مكانه . في بحارنا، بين طرابلس وجزيرة قبرس، عمارة عظيمة قدمت من الاستانة، مؤلفة من مئتي غراب . وقد انضمت اليها عدة مراكب آتية من جهات مختلفة . ويُقال انها تنتظر ايضاً اغربة ومراكب من بلاد المغرب . ولا يعلم احد اين تقصد، ويرجحون انها تتجمع للهجوم على البندقية؛ لان اغلب التجار البنادقة رحلوا الى وطنهم[٢]» .

حدثنا الاب ڤيتالي في التقرير، المشار اليه آنفاً، الذي قدمه، كما سبق القول، الى المجمع المقدس في السنة ١٦٤٣، عن معركة كبيرة دارت رحاها في السنة ١٦٤٢ بين اللبنانيين تحت لواء الامير ملحم، والدمشقيين بقيادة واليهم، اليك وصفها نقلاً عن الايطالية[٣] :

« في كانون الاول ١٦٤٢ هاجم باشا دمشق مملكة الامير بجيش جرار مؤلف من ٣٥ الفاً . فخرج الامير للقائه باثني عشر الفاً، بينهم الفان من الموارنة تحت الوية قوادهم . وكان الحرب في سهل فسيح الارجاء، واقع بين دمشق ولبنان . ظلت في بدء المعركة قوى الفريقين متعادلة، والنصر يرفرف باجنحته تارة فوق هذا الجانب وطوراً فوق ذاك . الى ان رجحت كفة الاكثرية واخذ جيش الامير يلتوي وامارات الاندحار بادية عليه . فلما رأى القواد الموارنة الوهن يتغلغل بين صفوف اللبنانيين، اقبلوا يقرعونهم ويعيدون الى اذهانهم بسالة الاجداد وامجادهم . وما زالوا حتى اضرموا في صدورهم نار الحماسة .

---

(١) د ٢١٢

(٢) ف ٤٤٣

(٣) راجع في مجلتنا كانون الثاني ١٩٣٦ ص ١٦ من الترجمة العربية

فحملوا على العدو حملة صادقة وكسروه اشنع كسرة، مجندلين من رجاله ثمانية عشر الفاً، غانمين مدفعه وسائر ذخائره واحماله . اما قائده بشير باشا، وكان يونانياً جاحداً مثال العجرفة والخيلاء، فلم ينجُ من الموت الا بالهرب وسرعة حصانه . بيد انه حمل ذكراً لهذه الكسرة جرحين، الواحد في زنده والآخر في جنبه ».

رابعاً : قصادة الخوري يعقوب عواد . روى الدويهي[1] ان البطريرك يوحنا الصفراوي انتقل الى رحمته تعالى في ٢٣ كانون الاول ١٦٥٦ فجلس مكانه المطران جرجس ابن الحاج رزق‌الله السبعلي في غرة السنة ١٦٥٧، ووجه وسائل الطاعة الى الكرسي الرسولي بصحبة الاب يوحنا الكرملي، الذي توفي على اثر وصوله الى رومية . فاضطر البطريرك الى تجديد المكاتبة . ولم يذكر لنا الدويهي اسم قاصده الثاني . بيد اننا عرفنا في رسالة كتبها البطريرك المذكور الى الغراندوق فرناندو الثاني تحمل تاريخ ٢٥ نيسان من السنة ١٦٥٧ المذكورة، انه كلف الخوري يعقوب عواد هذه المهمة .

وقد زوده الشيخ ابو نوفل الخازن برسالة يوصي به فيها الغراندوق، وذيلها بسلام وجهه الامير ملحم اليه . واليك تعريب رسالة البطريرك عن الايطالية . وانشاء هذه الرسالة ورسالة الخوري يعقوب، الملخصة اعلاه، كثير التشابه، مما يحدونا الى ترجيح نسبتها اليه .

« نعلم سموكم ان باشة طرابلس[2] يسومنا الاضطهاد، شأن الاتراك الظالمين . تارة يسلبنا ارزاقنا وطوراً اموالنا، حتى اصبحنا رازحين تحت ثقل مبلغ باهظ من الديون . الامر الذي حملنا على استنجاد سموكم لتسعفونا حسب عوائدكم الحميدة، مستحلفينكم بالدم الذكي، الذي سفكه الباري في اراضينا هذه المقدسة . فتضيفوا الى واجباتنا واجب الدعاء لله بحفظ التاج التسكاني السامي الشرف . فقد بلغ بنا الضيق حداً اصبح فيه الكرسي الانطاكي في خطر كبير . لان الهراطقة والمنشقين دائبون على نزع املاكنا وكنائسنا، لما يضمرونه للدين الكاثوليكي من الكره والحقد . ولو لم يسرع الامير ملحم الى اسعافنا، موفداً كتخداه نادر ابن الخازن الماروني، صديق سموكم،

---

(١) د ٢٣٠

(٢) محمد آغا الطباخ (د ٢٢٩)

لخلصنا من هذه الورطة، لكننا الان خارجاً عن كرسينا . كما يوضح لسموكم وكيلنا يعقوب عواد، رئيس الكهنة الماروني الحصروني.

« اعطي في دير انتقـال السيدة العذراء، المعروف بقنوبين، في جبل لبنان في ٢٥ نيسان ١٦٥٧ ».

ܓܘܪܓܝܣ ܡܚܝܠܐ
ܦܛܪܝܪܟܐ ܕܐܢܛܝܘܟܝܐ ܡܪܘܢܝܐ

اعني : الحقير جرجس البطريرك الانطاكي الماروني

اما الختم فللمطران جرجس العرجسي النائب البطريركي :

ܓܘܪܓܝܣ ܡܚܝܠܐ ܡܛܪܦܘܠܝܛܐ ܕܥܪܓܣ

الحقير جرجس مطران عرجس [(١)].

واليك الان نص رسالة الشيخ ابي نوفل بخطه الجميل الواضح :

حضرة سلطانم الجناب العالي كران دوكا المكرم دامة عليه
صوابع النعم امين

بعد تقبيل اياديكم الكريمة والعواطف الرحيمة جعلها الله تعالي من نوايب الدهر سليمه بجاه من له الايات العظيمة امين

وبعده نوضح بين اياديكم الشريفة اننا دايمً داعيين لسعادتكم بدوام البقا وعلو الارتقا وجميلكم والاحسانكم علينا ماينسا الله تعالي وتبارك يايد دولتكم السعيده ويهلك باغضكم وينولكم امانيكم في الدارين امين يا رب العالمين وان سالتم عن احوال دعجيتكم بنضركم اليوم بخير والدوله الترك رقت احوالهم من هده الجانب واجبال بلادنا ما يسلكو فيه ابداً وامور النصاره بجبل لبنان قوي منتظم والجميع داعيين لجنابكم بكل خير وحضرة سيدنا البطرك راسل عاملين العبوديه

---

(١) ف ٤٤٦ . هو جرجس من بيت شوخ من قرية عرجس، سامه البطريرك يوحنـا الصفراوي اسقفاً في السنة ١٦٥٥، ليكون مسعفاً له في امور الكرسي (د ٢٢٧)

الي تقبيل مواطي اقدام سيدنا البابا المكرم في بعض مصالح للنصاره الطايعين الكرسي المعظم وفي مصلحة لدعجيكم [١] انكان بتجي طريقهم في بلاد سعادتكم العامره جعلها الله تعالي دايم عمار في حسكم يكون حسن نضركم السعيد عليهم في سرعت التوجه الى روميه المعظمه باقي وحضرتكم في امان الله تعالى وحفظه علي الدوام والدعا .

وحضرة اخيكم الامير ملحم يهدي لجنابكم الكريم مزيد الدعا وا اتم التحيه والدعاء

عبوديت

بو نوفل بن

الخازن

حضرة عالي الجناب كران دوكا المكرم اطال الله تعالى بقاه

الختم على قفا الرسالة :

الواثق بالملك الرازن

نادر ابن الخازن

١٠٤٠ [٢]

خامساً : موت الامير ملحم . روى الدويهي [٣] « سنة ١٦٥٨ ورد امر بتقرير الطباخ على ايالة طرابلس، فولى على عكار المقدم فارس بن مراد [٤]، وعلى الجبة والبترون المقدم علياً باشا وابن الشاعر، على يد ابن معن . واستوفى المال الشيخ ابو نوفل ابن الخازن. وفيها توجه الامير ملحم الى صفد لجباية المال، فرض في عكا ونُقل الى صيدا.

---

(١) سعى وفاز بلقب « فارس روماني »، وهو اللقب الذي دعاه به ملك فرنسا في رسالته سنة ١٦٥٩ (د ٢٣٣)

(٢) تبدأ في ١٠ آب ١٦٣٠ . وهي السنة التي نقش فيها الختم ف ٤٤٥ و ٤٤٦

(٣) د ٢٣٢

(٤) من آل ابي اللمع، كما سبق القول . ر ص ٣٦٠ ح ١

وعند انكساف القمر في ١٦ ايلول قضى نحبه . وحزن عليه الشعب لاجل عدله وحلمه . فاقام له اولاده مناحة استقامت ثلاثة اشهر » .

وخلفه ولداه الاميران احمد وقرقماز، واقاما الشيخ ابا نوفل كاخية لهما . ولم يطل بهما الامر حتى اتصلا بالغراندوق فردناندو الثاني، واستكتبا اليه المطران اسحق الشدراوي كتاباً بالايطالية باسم الشيخ ابي نوفل، والشيخ ابا نوفل كتاباً بالعربية باسم الامير احمد . واليك تعريب الاول :

« الغرض من هذه الرسالة ان أؤكد لسموكم حفظي لجميلكم السابق ومواصلتي لمحبتكم، متذكراً دائماً الافضال التي غمرتموني بها ابان اقامتي لديكم في ليڤورنو وفي فلورنسا . واملي وطيد ان لا ابرح من ذهنكم، وان تواصلوني باخبار دولتكم، لاسرّ واتعزّى بها .

« اخبر سموكم بانتقال الامير ملحم الى الحياة الاخرى . وكان دائماً يتحدث الى ولديه عن الصداقة المتينة التي كانت تربط اجدادهما وسموكم . وقد خلفه ولداه الاميران احمد وقرقماز في الولاية على البلاد التي كان يحكمها . وكتبا الى سموكم، رغبة منهما في مواصلة الصداقة والمراسلة، كما سبق لاجدادهما وسموكم . وهما يرغبان اليكم ان تتكرموا بالسماح للآباء اليسوعيين[1]، المأذونين من رئيسهم، بان يحملوا اليهما صورة عمهما الامير فخر الدين المرسومة في قصر سموكم، او بان يستنسخوها . فيرسلوها من ليڤورنو الى هنا في اول مركب قادم الى صيدا او بيروت .

« اختم بالدعاء الى العزة الالهية لتحفظكم سالمين . وتجدوني مستعداً لتلبية ادنى اشارة تصدر الي من سموكم، طمعاً في خدمتكم »

عن بيروت في ٢٠ تموز ١٦٥٩ خادمكم المحب

ابو نوفل خازن

« كاتب هذه الرسالة، المطران اسحق رئيس اساقفة طرابلس، يدعو لسموكم بالبركات والخيرات السموية .

« صح بعد كتابة هذه الاسطر واجهت الامير احمد فأمرني بان اكتب الى سموكم

---

(١) ساعدهم الشيخ ابو نوفل على تأسيس رسالتهم في لبنان (د ٢٢٢ ـ ٢٢٥)

سائلًا ان تتكرموا وتبعثوا الى بيروت بتذكرة مرور باسم سفيره الموجود الان في الاستانة، والراغب في الرجوع منها بحرًا هو او وكيله . لان طريق البر غير أمينة . حتى اذا التقى احدهما بقرصان ليفورنو ابرز لهم هذه التذكرة، فأخلوا سبيله وما تعرضوا لاحماله وامواله . وكان الامير قد فكر في ان يكتب بنفسه الى سموكم بهذا الخصوص، ثم رأى ان يكلفني هذه المهمة . واني اعد نفسي سعيدًا لو تلقيت في بيروت هذه التذكرة، لاسلمها الى الامير يداً بيد . وهو يشاركني في الدعـاء لسموكم بالعز والانشراح »[1].

وهاك الان كتاب الامير احمد بنصه الحرفي :

الي حضرة الجناب العالى مفخر الامراء المكرم العم العزيز كران دوكا المكرم دامة عليه صوابغ النعم امين

غب اهداء تحيات صافيات وغرر تسليمات وافيات يخص حضرة من نشير اليه اصبغ الله تعالي جزيل انعامه عليه امين

اولاً ترايد كثرة الاشتياق الى نضركم الكريم بكل خيرًا وعافية وبعده ان تفضلتم عنا في السوال بحمد الله تعالي بخير وعافيه ونطلب من جود الحق سبحانه وتعالي ان دايمً تكون حضرتكم بزايد الخير ولا غير دالك نوضح الي جنابكم الكريم ان دايمً بقا المرحوم والدنا يتدكر قدامنا الموادده والمحبه الدي كانت بين المرحومين اسلافكم والمرحومين اسلافنا والمليح والجميل الذي انعمل مع المرحوم جدنا يشهد الله كاتبه فى كتاب تاريخ[2] ومنقراه في كل حين و كدالك

---

(١) ف ٤٤٦ و ٤٤٧

(٢) هذا يؤيد ظننا ان المفكرات الملحقة بالخالدي عن رحلة فخر الدين الى ايطاليا قد املاها الامير بنفسه على كاتبها . ر ص ٩

بكل وقت بينهي لنا كتخدانا ابو نوفل علي الرعايه والواجب الدي حصل لهم من جانبكم الكريم لما كانو تحت نضركم وعن الخرج الدي تفظلتم به وعينتوه لهم ومنعلم ان دالك لاجل خاطر هده الناس الله تعالي يجعلكم دايمين ودايماً تكونو بكل خير وكهف وملجا للمتظايقين ومنهلاً للواردين والدي متل حضرتكم يليق به الاعمال الحسنه لا زلتم متفظلين وبالسعادة مقرونين ومعلوم جنابكم محبتاً في الابا صلتاً في الابنا وانشا الله الرحمن المحبه والموده تزيد فيما بيننا ما تنقص ونطلب من الله انها تدوم الي يوم الدين ونترجا من الان وصاعد لا تقطعو اعلام سلامتكم عنا بالخير ليحصل لنا السرور الكامل في ورودها ومهما يعرض للجناب الكريم من المصالح بهده الجانب تشرفونا بها تقضي انشا الله تعالي باادنا اشارة علي ما في خاطركم العاطر من غير قصور ولا زلتم في سعود الي يوم الخلود والدعاء

ومنا مزيد الدعا واتم السلام — محسن مخلص

لحضرة ولدكم العزيز الامير المكرم — (الختم) — احمد بك

ولحضرة الاماره اخوانكم المكرمين — احمد بن معن

حفظهم الله تعالي واياكم بالخير زماناً

طويل امين والدعا

وحضرة اخونا الامير قرقماس يهدي جنابكم مزيد الدعا

واتم السلام الوافر والدعا[1]

---

(١) ف ٤٤٧-٤٤٩

ملحق

في تركة فخر الدين بفلورنسا

يذكر القرّاء ان الامير فخر الدين اودع في السنة ١٦٣٢، على يد وكيله ابرهيم الحاقلاني، مصرفَ الرحمة بفلورنسا مالاً اشترى به سندات من ذلك المصرف، سجّلها باسمه وباسم اولاده الثلاثة الصغار، ليذّخر لنفسه ولهم ما يستعينون به عند الحاجة؛ لانه لم يكن يأمن الدهر، ولعله كان شاعراً بما ينتظره واسرته من النوائب .

وبعد مرور قرن على مصرعه فكر ورثاؤه في مطالبة المصرف بالمبلغ وفوائده، وكلفوا مجمع انتشار الايمان المقدس برومية تحصيله . وقد عثرنا في خزانة هذا المجمع على جانب كبير من الوثائق الخاصة بهذه الدعوى، فرأينا ان نلخص بعضها او نعرّبه تكملة لبحثنا عن علاقات ورثة فخر الدين بالبلاطين التسكاني والروماني

١ - **التوكيل** - كان الامير احمد، آخر المعنيين، قد خسر ولايته، فاستردها في السنة ١٦٦٧، على اثر معركة عند برج بيروت، تغلب فيها على الحزب اليمني، المناوئ لاسرته[١] . وقد علمنا من الدويهي[٢] ان ولايته كانت تشمل مقاطعة الشوف، واقليمي جزين والخروب، فضلاً عن الغرب والجرد والمتن وكسروان . بيد ان الشيخ ابا نوفل الخازن، قنصل فرنسا في بيروت[٣] فاز في السنة ١٦٧١ بفرمان سلطاني، احيلت بموجبه الى عهدته مقاطعات كسروان والقاطع والفتوح[٤]، التي اصبحت مارونية بفضل آل معن وسعي آل الخازن .

وكان الامير قرقماز معن قد لقي حتفه في السنة ١٦٦٢[٥] . وفي ١٥ ايلول ١٦٩٧

---

(١) د ٢٤٠

(٢) د ٢٤٠ و٣٤٥

(٣) د ٢٣٧

(٤) د ٢٤٣

(٥) د ٢٣٧

توفي اخوه الامير احمد دون ان يترك ذكراً . فسعى الامير حسين بن فخر الدين، الذي اصبح في الاستانة من اكبر رجالها نفوذاً وثقافة، في ان يخلفه الامير حيدر ابن الامير موسى شهاب، لان والدته ابنة الامير احمد معن[1]. فاصبح الامير حيدر وريث المعنيين الشرعي، ورأس الاسرة الشهابية، التي حكمت لبنان حتى السنة ١٨٤٢ . وقد تنصر اغلب افرادها .

ونسي المعنيون والشهابيون المال، الذي اودعه فخر الدين مصرف الرحمة بفلورنسا، الى ان عثر الامير حيدر على ترجمة التمسك، الذي سلمه المصرف للحاقلاني، وكيل فخر الدين .

وفي السنة ١٧٢١ كان الخلاف قد استفحل بين البطريرك يعقوب عواد واساقفة طائفته، لان ابن اخيه، المطران سمعان عواد، تسبب في سجن المطران عبدالله قرألي، رئيس اساقفة بيروت . فهاج الشعب، اساقفته واكليرسه، وجهاؤه وعامته على البطريرك وعلى ابن اخيه، للاهانة التي لحقت بالاسقفية والطائفة في شخص اكبر احبارها فضيلة وعلماً وعملاً . وخشي الكرسي الرسولي ان يؤول الخلاف الى خلع البطريرك، كما آل في السنة ١٧١٠، فاوفد القس جبرائيل حوا قاصداً الى الطائفة ليسعى في تهدئة الخواطر واصلاح ذات البين .

ولما كان البطريرك راغباً في اكتساب رضى الامير حيدر، اشار على صديقه حوا بان يسعى لدى الكرسي الرسولي ليأخذ على عاتقه مهمة تحصيل المال، على ان يتنازل الامير للمجمع عن قسم منه لقاء اتعابه ونفقاته . فتحادث حوا والامير حيدر وبعث في ٧ آب ١٧٢١ الى المجمع بتقرير لخص فيه ما دار بينه وبين الامير من الحديث، وما وقع الاتفاق عليه مبدئياً . وكتب الامير الى المجمع بهذا الخصوص . ونزولاً على اشارة حوا وكّل الى العلامة يوسف السمعاني امر السعي في هذه المهمة . فقدم السمعاني بدوره الى المجمع في الجلسة التي عقدها يوم ٣ اذار ١٧٢٢، تقريراً وافياً، اشار في خاتمته ان يرسل التمسك ورسالة الامير الى القاصد الرسولي في فلورنسا، ليتثبت اولاً من حقيقة الدين، ثم يسعى لدى الغراندوق في الحصول عليه[2].

---

(١) د ٢٥٧

(٢) ف ٤٤٩ و ٤٥٠

٢ ـ التمسك ـ قلنا ان التمسك الاصلي فُقد في نكبة الامير فخر الدين، ولعل الاب ادريان دلا بروس احتفظ بالاصل ولم يبق لدى الامير سوى الترجمة العربية [١] . ومهما كان الحال فلم نعثر بين اوراق المجمع سوى على ترجمة هذا التمسك من العربية الى الايطالية، فاليك تعريبها [٢] :

« نحن وكلاء جبل الرحمة [٣] في فلورنسا، الذي لا يتأخر ولا يفلس، المؤسس بامر صاحب السمو غراندوق تسكانا ؛ بناء على محضر جلسة ٢٢ نيسان ١٦١٦ [٤] قد خصصنا الامراء حسن وحسين وحيدر، اولاد الامير فخر الدين، امير صيدا وجبل لبنان، بمائتين وسبعة وعشرين سنداً وثلث السند، من سندات جبل الرحمة المذكور . وثمن كل سند مئة سكوت . وكل سكوت يساوي سبعة فرنكات من عملة فلورنسا . وفائدة كل مئة سكوت خمسة سكوتات في السنة ابتداء من هذا اليوم . وقد تسلمنا ثمن هذه السندات نقداً بيد محاسب المصرف، فبلغت ٢٢٧٦٦ سكوتاً و١٦ صلدة وست بارات . كما يتضح من السجل المرقوم بحرف ف، من صف السجلات المرتبة على الرف رقم ٩ . اما الفائدة فتصرف للمذكورين كل ستة اشهر حسب العقد والشرح المبينين في السجل المذكور . كتب في فلورنسا في جلسة المصرف المنعقدة في ٢٨ ايار [٥] .

٣ ـ مصير المجمع ـ وكتب الامير حيدر الى المجمع يفوض اليه السعي لتحصيل المال ويتنازل له عن ثلث المتحصل الصافي بعد النفقات . ولما لم نعثر على اصل هذه الرسالة العربي، رأينا ان نعربها لك عن الترجمة الايطالية :

« الى حضرات كرادلة مجمع انتشار الايمان المقدس .

« افتخار الامراء المسيحيين حفظهم المولى .

« بعد السلام نعرض لحضرتكم اننا لما علمنا بمجيء صديقنا القس جبرائيل قاصدكم استدعيناه وتحادثنا معه، وبينا له عظم مودتنا لكم ولكل من يأتي من طرفكم

---

(١) ر ص ٣٦١

(٢) راجع النص الذي نشرناه في ف ٤٠١

(٣) Monte di Pietà

(٤) الصحيح ١٦٣٢

(٥) ف ٤٥٠

والحماية الخاصة التي نخولها اياهم في كل الظروف، كما هو معلوم لديكم ؛ لا سيما لما بسطنا يد الحماية لعزيزنا البطريرك يعقوب ليعود الى منصبه . ونحن نواصل الحماية له ولكل من يتمتع برعايتكم . ولا نسمح لاحد ان يخالفه باي نوع كان .

« ثم افهمناه عن قضية تخصنا لدى غراندوق تسكانا، يشرحها لكم القس جبرائيل، ولنا ملء الثقة انكم باذلون الجهد لانهائها على خير . وحقنا واضح . واذا انتهت القضية طرحت النفقات من المبلغ المتحصل . فاخذنا الثلثين وتركنا لمجمعكم الثلث، لينفقه في سبيل البرّ بالنوع الذي يبتغيه . هذه اكبر خدمة نسألكم اياها . فابذلوا الجهد كله لانهاء هذه القضية حسبما يليق بسمعتكم . ومهما كان لكم من الشؤون في هذه الجهات عرفونا عنه لنقضيه لكم باذن الله . وباشروا الخير » .

صديقكم المخلص

حيدر معن[1]

تحريراً في دير القمر من جبل الشوف في نهاية شوال السنة ١١٣٣ للهجرة[2] .

٤ ـ **قبول المجمع** ـ فاجابه المجمع بلسان الكردينال كاتم اسراره بالكتاب التالي تعريبه، الحامل تاريخ ٣ اذار ١٧٢٢ :

« الى الامير حيدر، امير الدروز

« ان العطف الذي اظهرتموه دائماً نحو خدمة الدين الكاثوليكي ليس في ولايتكم فحسب، بل في سائر المقاطعات اللبنانية، حملني وحمل كرادلة هذا المجمع، المؤسس لنشر الشريعة المقدسة، على الرغبة في مبادلتكم هذا العطف بشواعر معرفة الجميل نحوكم . ولما كنتم الان قد خولتمونا الفرصة لمرضاتكم بتحصيل الديون التي لكم على مصرف الرحمة بفلورنسا، ثقوا اننا باذلون من الجهد منتهاه توصلاً الى هذه الغاية . يؤكد لكم ذلك القس جبرائيل حوا والاباتي يوسف السمعاني . وهما سيقومان بالشكر لسعادتكم عنا لحصة الثلث التي خصصتم بها هذا المجمع من اصل المبلغ الذي نتمكن من تحصيله . وسينفقها المجمع في سبيل مشروع يخلد اسم سعادتكم الشريف .

---

(١) بدلاً من حيدر شهاب . ليسهل اثبات الارث . مع ان ارثه عن والدته ثابت بفرمان سلطاني . فكان ابراز هذا الفرمان يكفيه مؤونة تغيير اسم اسرته .

(٢) ٢٣ آب ١٧٢١، ف ٤٥١

« ولما كان عطفكم شاملاً ليس هذا المجمع فحسب، بل جميع الاشخاص المتعلقين به، جئناكم راجين ان تبذلوا الواسطة الفعالة للصلح بين اساقفة لبنان، لاسيما بين المطرانين سمعان وعبدالله . لان خلافهما اقلق الطائفة بأسرها زمناً طويلاً . ونحن على ثقة ان وساطتكم بالغة الغاية الحميدة المنشودة. مؤكدين لسعادتكم ان سادات هذا المجمع على تمام الاستعداد لتلبية رغائبكم العادلة وقبول ما تدلون به اليه من المشورات بهذا الصدد . فتحملونا جميلاً لا يُمحى ذكره . وتثيرون فينا الرغبة الصادقة لانتهاز جميع الفرص، التي تسمح لنا باظهار معرفتنا لجميل سعادتكم . واقبلوا في الختام شواعر احترامي الخاص[1] » .

وقد عثرنا في احد سجلات دير الرهبان الحلبيين برومية على نسخة عربية من تنازل كتبه الامير للمجمع في ١٠ كانون الاول ١٧٢٣، اليك نصه :

وجه تحريره وهو اننا اوهبنا الي حضرة مجمع كرديناليت بروبا كندا في مدينة رومية ثلث المال الحاصل من ارث المال الذي لنا من المرحوم جدنا الامير فخر الدين من الراسمال والفوايد المسجله في سجل جبل الرحمه في مدينت فلورنسا بحيث انهم يحصلوا الثلثين الباقيين لنا من المال المذكور وفوايده المذكوره ويوصلونا اياه وجري ذلك بخاطرنا ورضانا وحررنا لهم هذا التمسك بخط يدنا وختمنا يكون سنداً بيدهم لوقت الاحتياج اليه تحريراً في ثلاث اعشر يوم في شهر ربيع الاول سنت سته وثلاثين ومايه والف من الهجرت النبويه صح

الفقير

الامير حيدر

ابن معن امير

الدروز في بلاد

فونيقي وجبل لبنان

---

(١) ف ٤٥٢ و٤٥٣

٥ ـ **مفكرة المصرف** ـ وسعى المجمع حثيثاً لتخليص المبلغ، فتثبت من صحته، ومن قيمة فوائده، وتوصل الى اثبات الارث . وكلف قاصد الكرسي الرسولي بفلورنسا وطبقة من كبار المحامين ملاحقة القضية؛ حتى اوجست ادارة المصرف خيفة من هذه المساعي، وايقنت انها آئلة بالمصرف الى الخراب لو كتب لها النجاح، لانها تخرج من خزانته زهاء مئة واربعين الف سكوت بين اصل وفائدة . فحاول محامو المصرف عرقلة الدعوى بشتى الطرق القانونية اكتساباً للوقت . بيد انهم كانوا شاعرين بان ادعاءاتهم واهية، لا تلبث ان تذهب هباء منثوراً . فعمدوا الى التفتيش عن وثائق يدعمون بها اوهامهم، ويخرج من ورائها الامير فخر الدين مديناً للغراندوق ان لم يكن للمصرف . فكتبت ادارة المصرف الى الاب تورناكوينشي[١]، امين خزانة الاوراق الاميرية، مفكرة لها اهميتها القانونية؛ لانها تثبت اقرار المصرف بالدين وتشير الى الجهود الكبيرة التي بذلها المجمع لتحصيله . فاليك تعريبها :

« الامير فخر الدين من جبل لبنان، امير سوريه في فلسطين، سلم في السنة ١٦٣٢ بيد وكيله الى الغراندوق مبلغ ٢٢٧٠٠ سكوت نقداً، ليودعها المصرف بالفائدة، او بالاحرى لقاء ما يعادلها من سندات هذا المصرف . وتناوبت الدفعات، فكانت تارة في جانب الامير وطوراً في جانب الغراندوق . وبلغنا ان المصرف لم ينل سوى مبلغ ضئيل من هذه الدفعات، وان الغراندوق بقي مديناً بالقسم الاكبر منها .

« ويروي التقليد، بيد ان الوثائق تنقصنا، ان هذا الامير عصى على امبراطور الشرق وُطرد من مملكته . وانه سعى للتحالف مع عدة امراء مسيحيين ايطاليين، ليشدوا إزره ضد السلطان ويحتلوا الاراضي المقدسة . ومن هؤلاء الامراء المتحالفين معه كان الغراندوق، الذي سلّح خمسة غلايين للعمل في فلسطين؛ وان تسليح هذه الغلايين والرحلات التي قامت بها كلّفت ٥٧٦٠٠ سكوت . واكبر الظن ان المبلغ المودع ذهب في سبيل هذا التسليح وهذه البعثات[٢] .

---

(١) Abbate Tornaquinci

(٢) لم يفكر قط قزما الثاني ان يحمّل فخر الدين النفقات التي تكبدها في سبيل ضيافته وتسليح الغلايين . بل جاهر انه يقوم بها لمصلحة دولته والنصرانية . ولو قيدها ديناً لما اودع ولده فردناندو الثاني ثمن الحرير باسم الامير واولاده . ناهيك ان فخر الدين كافأه بالهدايا الثمينة التي

« وقد تنازل اخيراً ورثاء هذا الامير عن ثلث دينهم المزعوم الى مجمع انتشار الايمان المقدس، فقدره بمئتي الف سكوت . ورفع على الخزنة العامة وعلى مصرف الرحمة دعوى بلغت حتى الان نفقاتها حداً بعيداً . فترغب الى حضرتكم ان تبحثوا بين الوثائق الاميرية السرية، سواء كانت في الملفات الخاصة بالشؤون الحربية، او في سواها، لعلكم تعثرون على عقود عائدة الى هذه المحالفة، تتيح لنا الدفاع في هذه الدعوى، التي شدت علينا الخناق، وقد تحملنا نفقات باهظة؛ لان المجمع ينفق عليها عن سخاء، كما يعلم السيد لانديني، امين الرسوم القضائية، ومحامي الخزنة والسيد روتا محامي المصرف . ومن الجانب الآخر وقف في الدفاع الدكتور جيانيتي[1]، الذي لا يألو جهداً في اثبات الارث وحقوق موكليه بهذا المبلغ الباهظ، مستعيناً باساقفة شرقيين[2] ».

٦ ـ **تسوية الدعوى** ـ استفاد المصرف من الاعتراضات التي اقامها في وجه هذه الدعوى، حتى انها في السنة ١٧٣٣، اي بعد احدى عشرة سنة من اقامتها، كانت لا تزال في مراحلها الاولى . فرأى وكيلها الاباتي السمعاني ان يلجأ الى تسوية ترفع عن المصرف هول اخراج المبلغ الكبير المطلوب منه، فيقتصر على دفع فائدة سنوية عنه . ففي جلسة المجمع المنعقدة في ٦ تموز ١٧٣٣ قدم اليه تقريراً لخص فيه الدعوى وسيرها واقترح التسوية . واليك تعريب هذا التقرير، لان فحواه يغنينا عن تلخيص عشرات الوثائق او تعريبها :

« في اوائل القرن الماضي قدم الى ايطاليا فخر الدين امير الدروز في سوريه، لينال من امرائها مساعدات ترفع عن عاتقه نير الاتراك القاسي . ولما ذهب الى فلورنسا في السنة ١٦١٦[3] اودع مصرف الرحمة مبلغ ٢٢٧٦٦ سكوتاً، اشترى بها ٢٢٧ سنداً من سنداته . وكانت فائدة السند السنوية في ذاك العهد خمسة سكوتات . وقد سجلها باسمه وباسم اولاده الصغار الثلاثة، مساوياً بينهم في الحصص، كما يتضح من سجلات

بعث بها اليه والى اعضاء اسرته من حرير وجياد وما شاكل ذلك، فضلاً عن رعاية مصالحه ومصالح رعاياه التجارية والسياسية

(١) Landini. Ruota. Gianneti.

(٢) ف ٤٥٣ و٤٥٤

(٣) بدلاً من سنة ١٦٣٢، التي أودع فيها المبلغ . ولعل المصرف تذرع بهذا الخطإ لينكر المبلغ بكامله . والخطأ يدل ايضاً على ان السمعاني كان يجهل ان المبلغ ناتج عن ثمن الحرير الذي بعث به الامير من لبنان .

المصرف نفسه . ولما عاد الى وطنه هاجمه الاتراك مع اولاده المذكورين، وقادوهم الى الاستانة، حيث قتلوهم . وانقرضت اسرة الامير، وخلفه ابن اخيه، ومنه تسلسل الامراء حتى اليوم[١] . واقر الباب العالي بصحة هذا الارث، كما يتضح من الوثائق الرسمية

« بيد ان الورثة قد اهملوا المطالبة بفوائد هذه السندات، لان الاتراك حرموا عليهم الاتصال بالاوروبيين، خوفاً من ان يستعينوا بهم على خلع نيرهم . ولما ثبتت اقدام الورثة في ولايتهم سعى احدهم الامير حيدر معن في تحصيل هذا الدين . ففي السنة ١٧٢٢، لما قصد المطران جبرائيل حوا[٢] الى سورية، فاتحه الامير في الطريقة التي يحسن اتباعها للوصول الى هذه الغاية، وسلمه كتاباً الى المجمع يرجوه فيه التوسط له في تحصيل المبلغ، ويتنازل له عن ثلثه الصافي بعد حسم النفقات . واقام المنسنيور يوسف السمعاني وكيلاً له في هذه الدعوى، بموجب عقد مستوفي الاصول الشرعية، وخوله كامل السلطة اللازمة لملاحقتها، حتى حق التسوية، مصرحاً ان هذا التوكيل نافذ المفعول حتى بعد وفاته .

« فمنذ السنة ١٧٢٢ بوشرت المساعي في فلورنسا بواسطة المنسنيور پلاڤيشيني، القاصد الرسولي السابق، وبعده بواسطة خلفه المنسنيور سربلّوني[٣] . ووكل امر الدفاع الى احد المحامين الموثوق بهم . وقد مُهد كثير من العقبات التي اقامها المصرف، واصبح الدين حقيقة ثابتة .

« ولما شعر محامو المصرف بالخطر الكبير اللاحق به حتماً، اذا اضطر لصرف هذا المبلغ الجسيم، الذي بلغ اليوم زهاء ١٤٠ الف سكوت روماني بين اصل وفائدة، عمدوا الى اختلاق الصعوبات الغريبة اكتساباً للوقت . فطلبوا ان ينتقل شهود الارث الى فلورنسا، وزعموا ان الدعوى، اذا فصلت فيها المحاكم العادية، يجب استئنافها الى مجلس شورى الدولة، وان للغراندوق ديناً على هذه التركة يجب حسمه منها . وغير ذلك من المزاعم والاعتراضات .

« ولما كانت ظواهر الحال تدل على صعوبة انجاز هذه الدعوى، اذا استمر

---

(١) في ٥ نيسان ١٧٣١ كتب السمعاني الى الشيخ نوفل الخازن يطلب اليه شهادة بالفرنسية تثبت ان الامير حيدر وريث فخر الدين . مع ٣٧ و٣٨ .

(٢) سامه البطريرك يعقوب عواد اسقفاً على قبرس سنة ١٧٢٥، مكافأة له على انحيازه اليه ضد الاساقفة مخالفيه

(٣) Pallavicini. Serbelloni

السير فيها على هذا النمط، رأى السيد السمعاني وكيلها الشرعي، والسيد جبرائيل حوا، الذي ولّجه الامير العناية بها، ان يقترحا على الخصم تسوية وافق عليها محامي القضية، لاعتقاده انها اقرب سبيل لانجازها، لاسيما اذا انتهز مونسنيور فورتيجويرّا[1] فرصة اقامته في فلورنسا فعني بها العناية اللازمة .

« وقبل ان نشرح هـذه الطريقة، نحيط المجمع علماً ان المصرف دفع الى حاملي السندات فائدة خمسة في المئة حتى السنة ١٦٤٥، واربعة في المئة منها حتى السنة ١٦٤٨، التي انزل فيها الفائدة الى ثلاثة في المئة . وفي السنة ١٦٥١ خصص كل سند بثلاثـة فرنكات جيوليَّة فقط . وادغم في الرأسمال الفوائد الغير المدفوعة حتى ذاك العهد .

« فاذا رتبنا سلماً لهذه الفوائد، متمشين عـلى هذه القواعد، بلغ ما للامير على المصرف حتى يومنا ١٣٥٫٠٤٣ سكوتاً . فالتسويـة المقترحة الان هي ان تضاف الى الرأسمال جميع الفوائد المستحقة، وقدرها ٧٤٤٨٥، فلا يُسحب من المصرف المبلغ الجسيم الذي يتخوف منه . فان حسبنا من الان وصاعداً الفائدة على اساس ثلاثة فرنكات جيولية في السنة عن كل سند، اصبح ما يترتب على المصرف دفعه سنوياً ٢٠٢٥ سكوتاً، اذا قسمناها الى ثلاث حصص اصاب المجمع منها ٦٧٥ سكوتاً في السنة .

« ولا يخفى ان المصرف عليه ان يثبت دين الغراندوق على الامير، وان اثبته فلا يبلغ حدّاً يستغرق دين الامير على المصرف . ومهما كان الحال فالامـل بالوصول الى نتيجة مرضية معقود عـلى همة المنسنيور فورتيجويرّا ومساعدة القاصد الرسولي، الذي اوصاه قداسة الحبر الاعظم بالسعي الحثيث وراء هذه القضية، ومؤازرة المحامي . وقد تنازل قداسته ووعد بالكتابة الى الغراندوق، وباستخـدام جميع الوسائل الفعالة، التي تأول الى هذه الغاية .

« وتمهيداً لهذا الامر ارى من الضرورة .

« اولاً ان يسلم المجمع الى المنسنيور فورتيجويرّا توكيلاً رسمياً، يخوله فيه جميع الحقوق الممنوحة للمنسنيور السمعاني، حتى حق التسوية .

ثانياً ان يتنازل قداسته ويكتب بهذا الخصوص الى الغراندوق بعبارات عاديـة، لكنها ذات تأثير .

---

(١) Fortiguerra

«ثالثاً ان يؤذن للمنسنيور فورتيجويرّا بتوزيع مئة وخمسين او مئتي سكوت على موظفي البلاط التسكاني، ليسهلوا عليه مقابلة الغراندوق ووزرائه ومحادثته بجرية في هذا الشأن . ولا نكير ان مساعي هذا الحبر المطلع جيداً على دخائل القضية، والملمّ بالانظمة والشرائع، عائدة بالفائدة الجلى على هذه القضية . فضلاً عن الصداقة، التي تربطه بكثيرين من موظفي المصرف ومحاميه، ووزراء الغراندوق وحاشيته . الامر الغير الميسور لمن يلاحق القضية عن بعد. وما ينفقه سيادته في هذا السبيل لا يضيع على المجمع بل يُحسم من المبلغ المتحصل، لان الامير اوهبه الثلث بعد حسم النفقات».

وبناء على هذا الاقتراح اعتمد كرادلة المجمع صرف مئة وخمسين سكوتاً، ونزل قداسة البابا اكليمنضوس الثاني عشر على رجائهم فكتب الى الغراندوق بهذا الصدد في ١٢ تموز ١٧٣٣[1].

٧ _ **تحويل الدعوى الى مجلس الغراندوق** _ وبعد وصول المنسنيور فورتيجويرا الى فلورنسا قدم الى الغراندوق يوحنا غاستون مديشي[2]، عريضة روى له فيها خلاصة القضية، وما اقامه في وجهها وكلاء المصرف من الصعوبات . منها طلبهم ان ينتقل شهود الارث من رومية ونابولي حتى فلورنسا . وسأله في ختامها تحويل الدعوى الى مجلسه الخاص . فنزل الغراندوق عند طلبه واصدر في ٢٠ آب امراً عيّن فيه ثلاثة قضاة لاستماعها في مجلسه الخاص .

وفي الجلسة، التي عقدها المجمع في ٧ ايلول ١٧٣٣، استمع لتقرير رفعه كاتب سره عن مساعي المنسنيور فورتيجويرا في سبيل هذه القضية، نعربه للقراء ختاماً للوثائق المثبتة اهتمام البلاطين التسكاني والرسولي بمصالح ورثة الامير، للحماية التي ولاها ويولونها رعاياهما في الشرق :

« ارى من واجبي اعلام نيافاتكم ان المنسنيور فورتيجويرّا، بعد ان تلقى تعليماتكم بخصوص دعوى امير الدروز على مصرف الرحمة بفلورنسا، قصد الى هذه المدينة وعقد مع اولياء الامر عدة جلسات، تقرر في نهايتها عرض القضية على سمو الغراندوق وسؤاله

---

(١) ف ٤٥٦ - ٤٥٧

(٢) (١٧٢٣ - ١٧٣٧) . Giovanni Gastone Medici

ان يحيلها الى مجلسه الخاص . فلبى سموه الطلب وعين مع القاضيين كونتي وكواراتيزي، القاضي مورموراي[١] . وهو رجل ضليع في الشرع، صادق ونشيط . ولما كان وكلاء المصرف غير راغبين فيه لنزاهته ومقدرته، سعوا السعي كله ليحملوا المجلس على رفضه فلم يفلحوا . ويعتقد المنسنيور فورتيجويرا بعد هذا الفوز انه خطا خطوة واسعة في الوصول قريباً الى نتيجة مرضية . لان اثنين من القضاة الثلاثة مقتنعان بعدالة قضيتنا . ولو استمر السير بها على المنوال السابق، لما بلغنا قط الى انجازها . هذا ما ارتآه اعضاء المجلس انفسهم . بيد ان عطلة المحاكم تبدأ في هذا الشهر فلا بدّ من الانتظار الى الفصل القادم لتجديد المساعي »

ولهذه القضية خلاف ما سبق، عشرات الوثائق الدالة على ملاحقة المجمع لها حتى السنة ١٧٤١، حيث تختفي المساند الخاصة بها؛ سواء كان لانقطاع الامل في الوصول الى نتيجة حاسمة، او لحرص المجمع على حفظ الاوراق الراجعة اليها في « سجلات المحاسبة »، التي لا يُسمح للجمهور بالاطلاع عليها، وان سُمح لاحد فلا يؤذن له بنشر شيء عنها . فنكتفي بالاشارة الى عدة رسائل[٢]، وجهها المجمع بين السنتين ١٧٣٣ و١٧٣٥ الى وكيل القضية والى القاصد الرسولي بفلورنسا، والى كاتب اسرار قداسة البابا، والى الامير ملحم شهاب، الذي خلف الامير حيدر المتوفى سنة ١٧٣٣ .

واول عمل قرره مجلس شورى الغراندوق الايعاز الى القنصل التسكاني في رومية بسماع شهود اثبات الارث، لكي لا يكلفهم عناء الحضور الى فلورنسا ونفقاته . وجميع هولاء الشهود موارنة : المطران جرجس بن يمين الاهدني، والخوري بطرس مبارك، اليسوعيان؛ والمطران جبرائيل حوا، والاب يوسف الدبسي، الراهب اللبناني، والامير جنبلاط نصار الماروني، الذي كان في نابولي وانتقل بعدئذ الى رومية ففلورنسا .

وفي ١٠ كانون الاول ١٧٣٥ كتب المجمع الى الامير ملحم يوصيه بالمنسنيور يوسف السمعاني، المعين قاصداً رسولياً لرئاسة المجمع اللبناني الشهير، الذي التأم في ايلول السنة ١٧٣٦ . ومما افاده عن قضية المصرف « انها بلغت مرحلة يؤمل بعدها الوصول

(١) Conti. Quaratesi, Mormorai

(٢) ذكرنا مراجعها في ف ٤٦٠

قريباً الى تحصيل المبلغ، لان اكبر العراقيل التي قامت ضدها قد مُهدت . واحتياطاً لما قد تثيره المعارضة في شأن الوراثة من الضروري ان يوافق سعادته على جميع بنود التوكيل، التي وقعها المرحوم والده » .

وآخر ما علمناه من كتابين وجههما الامير ملحم الى السمعاني والى المجمع في رجب السنة ١١٥٣[١]، ان المبلغ لم يصرف حتى ذاك العهد. ولعل المصرف احتفظ به، فبلغ الآن الملايين، وبقي في تسكانا ذكراً خالداً لمعرفة الامير فخر الدين الجميل لتلك البلاد، التي انزلته على الرحب والسعة في سني شدته، وساعدته ما استطاعت الى مساعدته سبيلاً على تعزيز بلاده وعمرانها[٢] .

زغرتا في ٤ ايلول ١٩٣٨

الخوري بولس قرألي

---

(١) الذي يبدأ في ٢٢ ايلول ١٧٤٠ . راجعهما في تاريخ الرهبانية اللبنانية لبليبل ١ : ٣٥٠ و ٣٥٢

(٢) ف ٤٥٨-٤٦٠

فهرس المواد

الوثائق

صفحة

القسم الثاني ـ فخر الدين وفردناندو الثاني

صفحة

صفحة

فهرس الاعلام

تنبيه : لقد اهملنا اولاً ذكر الاعلام الواردة تقريباً في كل صفحة، مثل فخر الدين ولبنان، وتسكانا، وايطاليا، والباب العالي، وتركيا والاتراك، وما شاكل ذلك . ثانياً اسماء المؤلفين المذكورين في المراجع باحرف اصطلاحية، الا اذا وردت اسماؤهم كاملة

الارقام تدل على الصفحات التي ذكرت فيها الاعلام

الارقام الصغيرة السوداء تدل على ان لصاحبها كلاماً خاصاً به ورد في تلك الصفحة

ت

ج

ح

خ

ش

ص

ض

ط

ق

ل

م

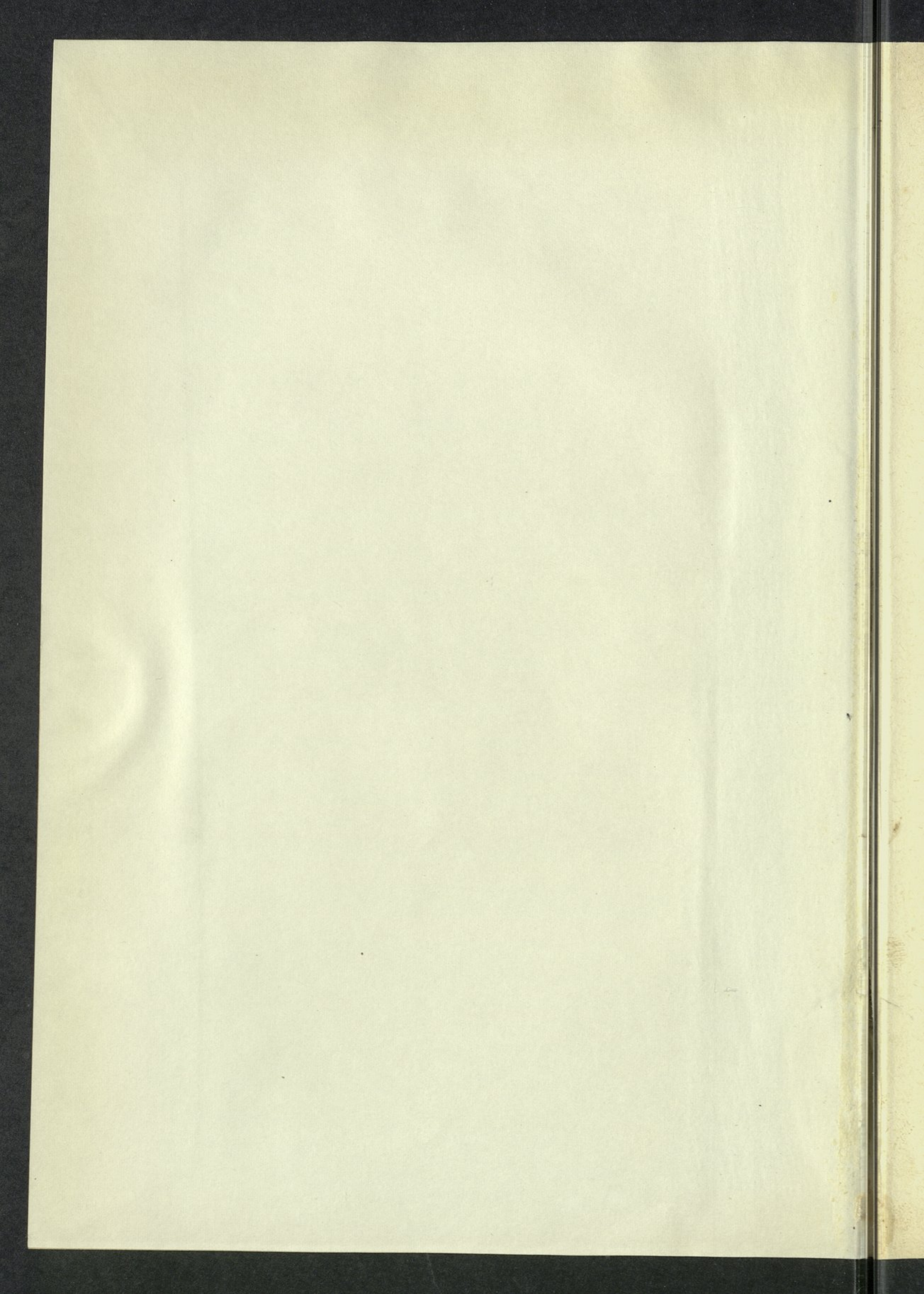
ﻫ

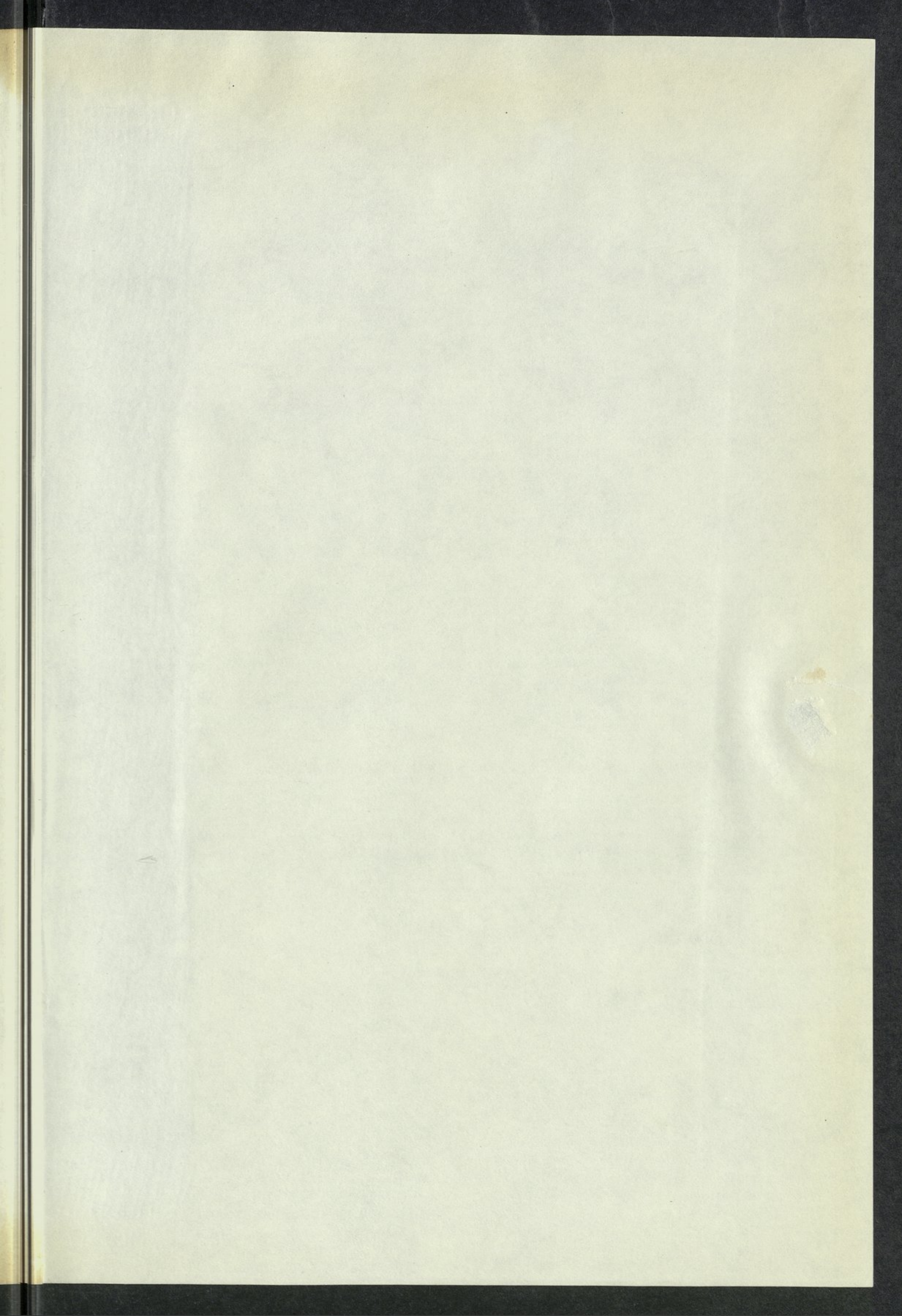
و

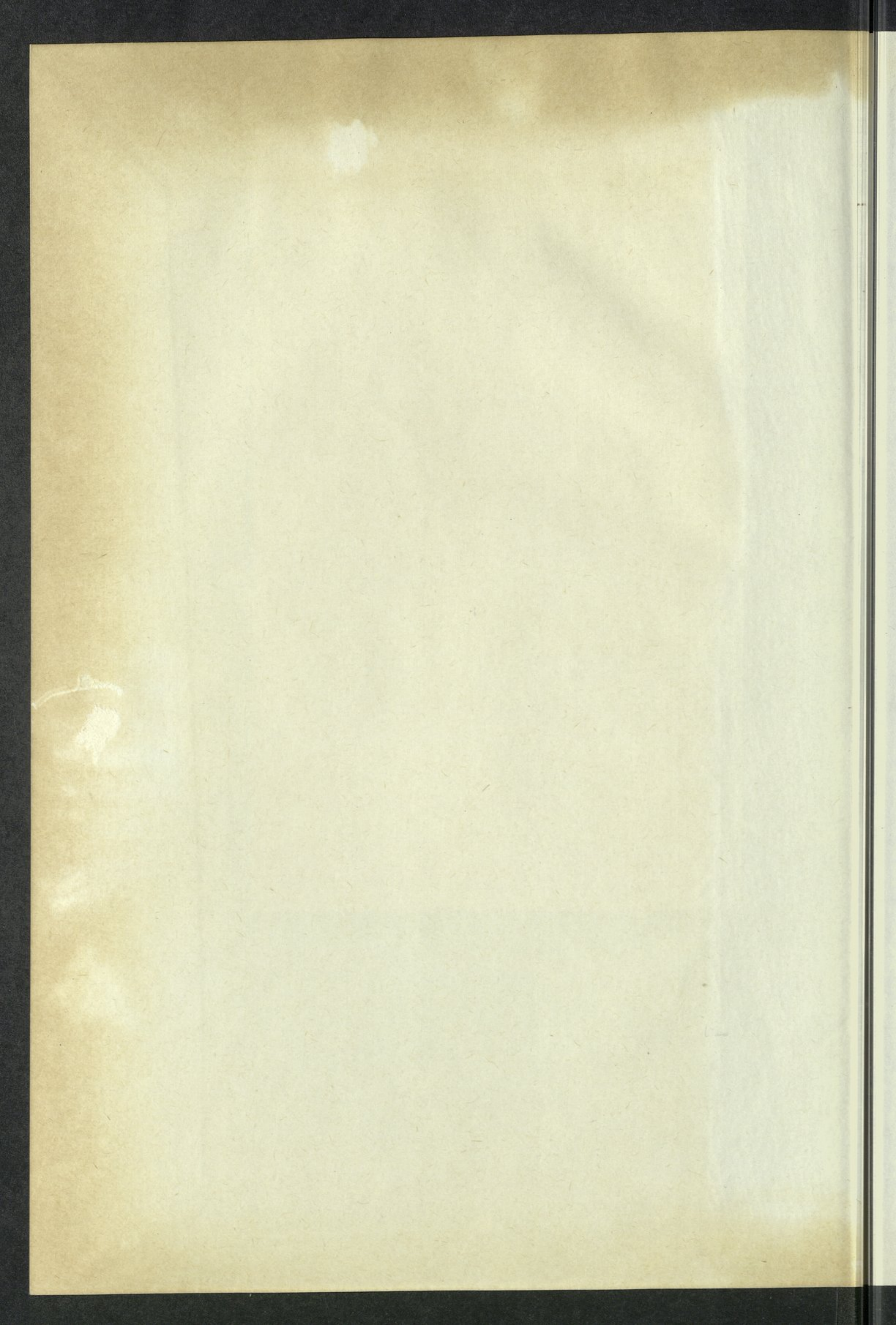
ي

اصلاح خطإ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٢	١٦٢٣	١٦٢٤
١٠	١٣	١٦١٠	١٧١٠
١٦	١١	عثمان باشا	عمر باشا
١٧	٢٤	حفيده	ابن اخيه
٥٤	١٥	وجنوا ومرسيليا	وجنوفا ومالطه ومرسيليا
٨٠	٢٤	الليطاني	الاولي
٩٢	١٠	المعنيين .	المعنيين في لبنان .
٩٤	٢٢	فروخ	فريخ
١٠٥	١٨	شعبان	رمضان
١٤١	٩	فردنان الثالث	فردنان الثاني
١٧٤	٧	بيوس الخامس	بولس الخامس
٢١٩	٨	٢ ـ الامير	ثانياً ـ الامير
٢٤٠	١	٢ ـ الانقلاب	٣ ـ الانقلاب
٢٤٦	٤	٣ ـ فرمان	٤ ـ فرمان
٣٠٠	٦	الخامس	الخاص
٣٤٥	٤	جميع الانكشارية	جميع السكمان اي الانكشارية
٣٦٩	٢١	٢٤ تموز	١٨ آب
٣٨٧	١٨	الاب يوسف	الاب يواصاف







DATE DUE

